قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٥﴾

التفسير: عندما فرغ السحرة من الحديث مع فرعون قال لهم موسى عليه السلام: ألقوا ما أنتم ملقون إزائي.

هنا أيضًا نجد اختلافًا في الظاهر بين ما ورد في سورة الأعراف وما ورد هنا، حيث ذكر القرآن الكريم هنالك أن السحرة ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ۝ قَالَ أَلْقُوا﴾(الأعراف: ١١٦-١١٧)، بينما لا تذكر سورة الشعراء أي سؤال من قبل السحرة. والحق أنه ليس ثمة اختلاف بين البيانين، وإنما قيل هنا ما يتماشى مع السياق، ذلك أن سياق الكلام في سورة الأعراف يبين أن السحرة كانوا موقنين بنيل الأجر، ولذلك قالوا لموسى: ﴿إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ﴾، أما هنا في سورة الشعراء فالسياق يفيد التوقع أكثر من اليقين، ولذلك لم يُذكَر هنا قول السحرة لموسى عليه السلام وإنما ذُكر قول موسى لهم فقط ﴿أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ﴾.. أي لا تهتمّوا بمصيري، بل جرِّبوا حظكم أوّلاً وأخرجوا ما في جعبتكم. فألقَوا حبالهم وعصيهم، وقالوا إرضاءً لفرعون: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾.

إن هذه الكلمات التي وردت هنا على لسان السحرة تشكّل دليلاً ساطعًا على صدق القرآن الكريم بأنه من عند الله سبحانه وتعالى. ذلك أن القسيسين المسيحيين يزعمون دائمًا أن القرآن الكريم من تأليف محمد ﷺ، ولكنا نؤكد أنه زعم باطل، ونوقن أن القرآن وحي من عند الله تعالى الذي عنده العلم التام بما مضى وبما هو موجود وما سيكون في المستقبل. ومع ذلك لو سلّمنا جدلاً بما يقول الأعداء بأن القرآن كلام محمد ﷺ، فلا بد لهم من الاعتراف بسمو مكانته ﷺ الأدبية العالية وسعة معلوماته. ذلك أن القرآن الكريم يعلن أن فرعون لما جمع سحرة مصر لمواجهة موسى، قالوا قبل أن يُروا أعمالهم السحرية ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾. وهذه الكلمات

لا يمكن أن تتبادر إلى ذهن العرب، إذ لم يكن بينهم سحرة يسمع منهم النبي ﷺ هذه الكلمات فيعرف أنهم يستعملونها دائمًا قبل أن يأتوا بسحرهم. فالذين يزعمون أن القرآن الكريم من تأليف محمد ﷺ عليهم أن يفكروا أنه ﷺ قد وُلد في بلد لم يكن للسحرة وشعوذتهم السحرية أثر؛ فمن ذا الذي علّمه هذه الجملة يا ترى؟ لقد طالعتُ تاريخ العرب بكل دقة، وكل ما نعرف من تاريخهم أنهم كانوا مولعين بالشعر، ويعيشون على رعي الغنم والإبل؛ ولكن لا نجد في تاريخهم أثرًا للسحرة ولا لشعوذتهم، إنما كان السحرة في مصر والهند وغيرها من البلاد، ولكن رسول الله ﷺ لم يزرها؛ فكيف، يا ترى، علم أن السحرة يرددون كلمات كهذه قبل قيامهم بأعمالهم السحرية؟ لقد رأيت بنفسي بعض السحرة أنهم، قبل البدء بشعوذتهم السحرية، يقولون للحضور: فليكن هكذا بعزتك يا فلان، مثلما قال السحرة في زمن موسى عليه السلام: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾؛ ولكننا لم نرَ أي تعبير كهذا في تاريخ العرب. إذن فهذه الجملة تدل صراحة على أن القرآن تنـــزيل من رب العالمين.

ولو سلّمنا جدلاً بأن هذه الجملة من تأليف الرسول ﷺ لا من وحي الله سبحانه وتعالى، فإنها تشكّل دليلاً على سمو مكانته الأدبية وسعة معلوماته، إذ نجد السحرة لا يزالون يرددون كلمات مماثلة حتى اليوم.

هذا، أفليس من المضحك أن نجد السحرة من جهة يحاولون أن ينتصروا على نبي الله سبحانه وتعالى مؤكدين أنهم هم الغالبون، ومن جهة أخرى نجدهم يكيلون المدح والثناء لمن يعملون من أجله السحر قائلين: بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون، وليس ذلك إلا ليعطيهم عطاءً زائدًا!

فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ

مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٩﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٠﴾ قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥١﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٢﴾

شرح الكلمات:

تلقَفُ: لقِف الشيءَ: تناولَه بسرعة (الأقرب). أي أخذتْ عصا موسى تقضي بسرعة على سحر السحرة.

خلاف: الخلاف: المخالف؛ وفي القرآن ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ﴾.. أي أن تكون الواحدة منهم يُمنى والأخرى يُسرى (الأقرب).

ضيرٌ: الضير: المضرَّة. (المفردات)

التفسير: لما ألقى السحرة حبالهم وعصيّهم، ألقى موسى عليه السلام عصاه. وكانت حبالهم وعصيّهم محشوّة بالزئبق الذي كان يحرّكها، فانكسرت بضرب موسى إياها بعصاه وخرج منها الزئبق، وانكشف خداع السحرة، فخرّوا ساجدين إذ كانوا يعرفون حقيقة سحرهم، وقالوا: ﴿آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۞ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾. أي قد عرفنا الآن أنه نبي صادق ولسنا إلا سحرة دجّالين.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ﴾ يشير إلى أنهم لقوا هزيمة نكراء، وكأن قوة خفية سحبت البساط من تحت أرجلهم فخرّوا لله ساجدين معترفين على الملأ أنهم يؤمنون بالله الأحد ويتّبعون موسى وهارون – عليهما السلام.

فاستشاط فرعون غضبا مما فعلوا وقال: ﴿آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.. أي سترون كيف تكون عاقبة ما فعلتم.

وهذا يعني أن فرعون نسِي بسرعة كيف كان يستعين بهم لمواجهة نبي الله تعالى مغريًا إياهم أنه سيجعلهم من المقربين، أما الآن فبدأ يستهين بهم حتى يهددهم بالعقاب كيفما شاء، ويقول: لأنكم خالفتموني، فسوف أقطّع أيديكم وأرجلكم من خلاف وأقتلكم صلبًا لتكونوا عبرة للآخرين. ولكن السحرة الذين كانوا يأتون بألاعيبهم السحرية أمام الناس نظير المال، كانوا قد آمنوا بصدق، فما كانوا ليكترثوا لتهديد فرعون؛ فقالوا له دونما تردد: لا حرج، إذ إننا راجعون إلى ربنا في يوم من الأيام، ولو قُتلنا بيدك فما الحرج في ذلك؟ بل إن موتنا بيدك خير لنا لأن الله تعالى سيغفر لنا ذنوبنا إذ تعرضنا للتعذيب في سبيل دينه، وتركنا مجتمعنا الفاسد مؤمنين بنبيّه.

الحقّ أن الإنسان ما لم ير الله تعالى تبدو له مصائب الدنيا كجبال شامخات، وتتراءى له مِحنها كبحار لا شاطئ لها، ولكنه حين يرى الله ﷻ يهون عليه كل أذى ومصيبة، وعندها لا يكون أمامه إلا هدف واحد وهو أن يتحقق ما قال الله تعالى، ولا تساوي عنده الحكومات والممالك والعقارات إزاء قول الله ﷻ شيئًا؛ فيتقدم ضاحكًا ويضحّي بنفسه ليحضر عند الله تعالى. لم يكن صاحبزاده عبد اللطيف ﷺ الذي استُشهد* من جماعتنا إلا إنسانًا مثلنا، ولكن لما دعاه الملك وقال له: حضرة الشيخ، أكنّ لك احتراما كبيراً، وأريد إطلاق سراحك، ولكني لو خلّيتُ سبيلك هكذا لعارضَني المشايخ؛ فأرجو أن تساعدني في ذلك؛ فإذا سألتك عما إذا كنت قاديانيًا فقلْ بلسانك لا وإن آمنتَ بصدقه في قلبك، فأطلق سراحك. فأجابه صاحبزاده: أيها الملك، ترى حياتي غالية، ولكنها لا تساوي عندي شيئًا! وإنني لم آتِك إلا لتقديم هذه التضحية. لقد سبق أن قال لي القوم أن أخفي على الناس انضمامي إلى الأحمدية، ولكني رفضت اقتراحهم – علمًا أن حضرة صاحبزاده كان قد عُرض في أول الأمر على الوالي الذي كان من

* استُشهد حضرته ﷺ في كابول في حياة المسيح الموعود عليه السلام. (المترجم)

تلاميذه ﷺ، فأشار عليه أن يفرّ من هناك لأن حياته مهددة بالخطر، ولكن حضرته أجابه: هات بالسلاسل وقيّدني بها، لأن الله تعالى قد أخبرني البارحة أنني سألبس أسورة من الذهب، فلا أخاف الموت، بل أود أن أضحي بنفسي لنجاة قومي. ثم لما رشقوه بالحجارة كان قلبه خاليًا من أي بغضاء تجاه قومه. بل لما أرادوا دفنه إلى نصفه قبل رشقه بالحجارة حتى لا يهرب، قال لهم: لا داعي لدفني هكذا لأني لن أهرب. ويقول شهود عيان أنه لما بدأوا رشقه أخذ يدعو الله ﷻ بصوت عال: اللهم ارحمْ قومي فإنهم لا يعلمون!

(تذكرة الشهادتين، الخزائن الروحانية، المجلد ٢٠ ص ٤٩-٦٠)

هذه الأمثلة الرائعة هي التي تحيي الأمم. لا شك أن بين المؤمنين ضعفاء، ولكن الشباب منهم عندما يرون مثل هذه النماذج الرائعة للتضحية تمتلئ قلوبهم حماسا ويقولون: كم كان مصير هذا الإنسان رائعًا عند الله ﷻ! فهلمّ نضحي بأنفسنا مثله، فيقفزون في أنهار النيران والدماء. وهذه هي الحكمة وراء تشبيه الملكوت الروحاني بالكرم في الإنجيل (لوقا ٢٠: ٩-١٨)، ذلك لأن كرمة العنب هي الشجرة الوحيدة التي تُسقى بالدم فتنفعها كسماد فتظلّ مخضرّة نضرة. إذًا، فقد أشار الله ﷻ بهذا التمثيل أن نضارة دينه تتطلب دائما التضحيات الإنسانية، وسوف تعاد إلى هذا البستان الحياة والنضارة بإراقة دماء الناس في جذور أشجاره. إن التاريخ الطويل للجماعات الروحانية دليل ساطع على صدق هذه الحقيقة، إذ لم يُبعث نبيّ قط إلا ومرّت جماعته بأشدّ المحن والخطوب. لقد اعتُقلوا وقُتلوا وصُلبوا واستُشهدوا بالسيوف، ورغم كل هذا التعذيب والأذى كانت الغلبة للحقّ دائمًا. لقد دمّر نبوخذنصر بيت المقدس بعد داود عليه السلام تدميرًا، و لم يُبق من الهيكل السليماني أثرًا.

(الموسوعة التوراتية: المجلد ٣ ص ٣٣٧٠: تحت كلمة: Nebuchadrezzar)

ولكن ماذا كانت النتيجة؟ لم تستطع الدنيا محو ما أتى به موسى عليه السلام من تعاليم، ولا تزال كرامته قائمة في الدنيا حتى اليوم، ولا يزال هناك من يضحّون بأرواحهم دفاعا عن اسمه. يمكن أن يسبّ المرء ملِكًا حيًّا مستبدًّا يملك نظام

مخابرات مدهشًا ومع ذلك يمكن أن ينجو من عقابه ويفلت من بطشه، ولكن هؤلاء الأنبياء الذين كانوا بشرا كغيرهم وقضوا حياتهم في فقر، وإذا كان بعضهم ملوكا فلم يكونوا كملوك الدنيا، ورغم أنهم مدفونون اليوم تحت أطنان من التراب، ولا يوجد أثرٌ لنسل بعضهم، وقد اندثرت أمم بعضهم، ومع ذلك إذا أساء أعتى ملكٍ في العالم بحقّهم فلا يمكن أن ينجو من الخزي والهوان، وليس ذلك إلا لأنهم رضوا بأن يُذبحوا بسكّين محبّة الله ﷻ، فنالوا لقب "أكباش الله". وكما أن لحم الكبش يصبح بعد الذبح غذاءً للإنسان وجزءًا من جسده، كذلك فإن الذين يصبحون أكباشًا لله تعالى ويُذبَحون ويتفانون في الله تعالى، ينالون الملكوت الأبدي. والحق أن السَّحَرة الذين آمنوا بموسى عليه السلام قدّموا هذا النموذج الرائع للتضحية، فقالوا لفرعون: لقد أصبحت قلوبنا الآن عامرة بنور الإيمان، فلن ننحرف بعد ذلك عن جادة الحقّ من جراء ما تصبّه علينا من العذاب.

هذا هو الإيمان الذي يهب النجاة للإنسان، وهذه هي روح التضحية التي تجعل الأمم غالبة في الدنيا.

وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾
فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ
قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَـٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾

شرح الكلمات:

أَسْرِ: سرَى الرجل: سارَ عامّةَ الليل أي معظمَه. وأَسرَى بمعنى سرَى؛ وقيل: أسرَى لأوّل الليل وسرَى لآخر الليل. (الأقرب) فالمراد من قوله تعالى ﴿أَسْرِ بِعِبَادِي﴾.. اخرُجْ بعبادي ليلاً، أو اخرُجْ بهم في بداية الليل.

شِرذِمةٌ: الشرذمة: الجماعة القليلة من الناس. (الأقرب)

حاذِرون: جمعُ حاذر، وهو المتأهّب المستعدّ. (الأقرب)

التفسير: أي أن الله تعالى أخبر موسى عليه السلام أن فرعون قد خاف كثيرًا فلا حاجة لاستئذانه، بل اخرُجْ بقومك باسم الله ليلاً. ولكن عليك بأخذ الحذر لأن فرعون وأصحابه سيطاردونكم.

وهذا ما حصل بالفعل حيث بعث فرعون رسله في جميع المدن، وأعلن أن بني إسرائيل جماعة صغيرة حقيرة تثير سخطنا ونحن جماعة كبيرة ذات عدّة وعتاد، فكيف يمكن أن نخاف هذه الأقليّة ولا نبادر بالقضاء عليها؟

هذا العيب نجده في أعداء كل نبيّ في أي عصر، حيث يصيبهم الزهو بكثرتهم وقوتهم، فبدلاً من أن يراعوا مشاعر الآخرين يهدّدونهم بإصلاحهم بالعصا إذا لم يرضوا بقولهم. يقال إن ذئبًا كان يشرب الماء من جدول، فجاء جديٌ وأخذ في شرب الماء. فلما رآه الذئب سال لعابه وأراد أكله. والحيوان ليس كالإنسان، لأن الإنسان يقدّم الدليل لتبرير ما يفعل، أما الحيوان فهو في غنى عن تبرير فعله. وحيث إن الذئب في هذه الحكاية يبرر أكل الجدي بدليل كما سنرى لاحقًا، فالمراد من الذئب هنا إنسان عنده خصال الذئب، والمراد من الجدي إنسان ذو خصال الجدي. على أية حال، طمِع الذئب في افتراس الجدي فقال له: لماذا تكدّر الماء الذي أشربه! ألا تستحي؟ فأجابه الجدي: سيدي، أنا لا أكدّر ماءك، حيث ترى أنك في الناحية العليا من الجدول وأنا في الناحية السفلى منه، وأشرب من الماء الذي يجري من عندك، وليس العكس. فتقدّم الذئب ولطَم الجدي وقال: كيف تجاسرت يا قليل الأدب أن تردّ عليّ؟

هذا هو مثل أعداء الحقّ. إنهم لا يفكرون ليروا ما هو الحق إنما يرون أنهم يشكلون الأكثرية وأنهم قادرون على أن يفعلوا ما يحلو لهم.

أتذكر أن المولوي ثناء الله الأمرتسري جاء قاديان مرة وقال لأتباعه في اجتماع كبير بين هتافات التكبير: أبيّن لكم أمرًا مهمًّا، هناك طريق سهل للفصل بيني وبين الميرزا محمود، وهو أن نسافر أنا وهو بالقطار إلى مدينة "كولكتا" وسيقف القطار

بعشرات المحطات، وسترى الدنيا أيُّنا يُرشَق بالحجارة وأيُّنا يُمطَر بالورود، ويحظى بتأييد المسلمين؟ فجاءني الإخوة وقد بلغ منهم الذعر كل مبلغ وقالوا: كان لقول الأمرتسري تأثير كبير في الناس ونفخ فيهم حماسًا وهياجًا. وكان من المخطط أن أُلقي في المساء كلمة فقلتُ فيها: لقد قام الشيخ ثناء الله بنفسه بفصل القضية وأخبر أينا صادق وأينا كاذب، والفرق الوحيد أنه قد أتى بهذا الاستنتاج من عند نفسه، ولكن ما حصل في زمن النبي ﷺ يؤيدنا نحن. وقلت: يقترح المولوي ثناء الله الأمرتسري أن نسافر معًا بالقطار إلى "كولكتا" لنرى أينا يُستقبل في الطريق بالورود وأينا بالحجارة، واستنتج الشيخ الأمرتسري أن الذي سيُستقبل بالورود هو على الحقّ، مع أنه لم يكن بحاجة ليقوم بأي استنتاج، إذ يوجد أمامنا مثال لمحمد ﷺ وأبي جهل. فليخبرنا الشيخ الأمرتسري أيٌّ منهما كان يُرشق بالأحجار في مكة وأيٌّ منهما كان يُستقبل بالورود؟ فما دام النبي ﷺ هو الذي كان يُرشق بالحجارة، وما دام أبو جهل هو الذي يُستقبل بالورود، فالنتيجة واضحة. إن الذي يُرشق بالأحجار صادق، والذي يُستقبل بالأزهار كاذب.

إذًا، يشكل من لا دين لهم الأكثريةَ في بعض الأحيان، فيصبّون على غيرهم كل نوع من الظلم والتعذيب، ولكن ما يحدث هو أن العاشق الصادق يصاب بنوع من النشوة مثلما تصاب الأكثرية بالزهو والغرور ويُفقدهم العقل والصواب، ولكن النشوة التي تصيب العاشق الصادق لا تدفعه إلى قتل الآخرين بل تجعله يقدّم نفسه للقتل. وبالفعل ترى أن أصحاب الأكثرية قد قتلوا دائما أصحاب الأقلية نتيجة زهوهم، ولكن العاشقين قد ضحّوا بأرواحهم من أجل من عشقوهم دائمًا. وقد أشار المسيح الموعود عليه السلام إلى هذه الحقيقة في بيت شعر له بالفارسية، فقال:

در کوئے تو اگر سرِ عشاق را زنند
اوّل کسے کہ لاف تعشّق زند منم

(آئينه كمالات إسلام، الخزائن الروحانية المجلد الخامس ص ٦٥٨)

أي لو صدر الحكم بكل من يعلن عشقه لك ويقصد ديارك – وإن كان العشق لا يحتاج إلى ادعاء – فإني أوّل من يهتف بعشقك على الملأ.

الحقّ أن العاشق والمسلم ليسا بضدّين، بل هما اسمان لشيء واحد، ولكن ليس المراد من العاشق هنا من يتّبع هواه، بل المسلم الصادق الكامل في إيمانه. فإنه لا يصبر على المصائب فحسب، بل يُصاب بالقلق والاضطراب إذا لم تحلّ به المصائب مخافة أن يكون حبيبه قد سخط عليه. إن الهروب من المصائب من دأب المنافق. والحق أن الصبر على الشدائد ليس من خواص المسلم فقط، بل قد يصبر عليها غيره. والمسلم الصادق من لا يصبر عند حلول المحن فحسب، بل يعتبر فترة الشدائد سببا لرقيه الروحاني، وإذا تأخرت عنه المصائب لفترة من الزمن أصابه القلق خوفا من أن يكون قد حصل نقص في إيمانه، فلا يدبّر له ربّه ما يكشف إيمانه على الناس.

إذًا، فإن الأكثرية تظلم المؤمنين نتيجة كبريائها، ولكنهم يصبرون على ظلمهم إلى أن يبلغ السيل الزبى، فيعاقَب المجرمون الذين يضطهدون الآخرين مغترين بقوتهم. لما فتح النبي ﷺ مكّة سأل الكافرين الذين كانوا يعذّبونه وأصحابه ليل نهار أشد التعذيب، وقال: يا أهل مكّة، ماذا ترون أني فاعل بكم؟ و لم يكن يعني بقوله هذا إلا أن يذكّرهم بأنهم كانوا يحتقرونه مغرورين بأن تسعة وتسعين بالمائة من أهل مكة معهم، فكيف يجرؤ على مواجهتهم؟ فهؤلاء الذين كانوا يدعون الأكثرية أصبحوا في ذلك اليوم عديمي الحيلة كلية، و لم يملكوا إلا أن قالوا له ﷺ: نأمل أن تعاملنا كما عامل يوسف إخوته. فعفا عنهم جميعًا*.

وكان فرعون أيضا مغرورا بالأكثرية، بل الحق أننا لو أمعنا النظر لوجدنا أنه منذ أن خُلقت الدنيا وُجد فيها نوعان من الحكومات دائمًا: إحداهما تعتمد على

---

* نصّ ما ورد في شتى المصادر هو كالآتي: "يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيرًا، أخٌ كريم وابن أخ كريم. قال: فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: لا تثريب عليكم اليوم. اذهبُوا فأنتم الطلقاء." (زاد المعاد في هدي خير العباد: المجد الثاني ص ١٦٥، دخول النبي ﷺ والمسلمين مكة) (المترجم)

العقل والمنطق، والأخرى تعتمد على القوة والبطش. وقد اختلفت التعابير الآن باختلاف الزمان، حيث تُسمى اليوم الحكومة التي تعمل بالعقل والحكمة جمهورية، بينما تُسمى الحكومة التي تعمل معتمدة على القوة والبطش والعنف دكتاتورية، أو يطلقون عليها أحيانا "هتلرية". ومهما اختلفت الأسماء والتعابير فإن هاتين القوتين لا تزالان تعملان في الدنيا منذ زمن آدم إلى يومنا هذا. حيث يتضح من القرآن الكريم أن آدم كان له ابنان، فقرّبا قربانا فتُقبّل من أحدهما و لم يُتقبّل من الآخر. لقد قدّم أحدهما قربانه بإخلاص وتقوى فتُقبّل، ولكن الآخر قدم قربانا خاليا من الإخلاص والتقوى فرُفض (المائدة:٢٨). وكان الطريق الحكيم السليم الذي كان ينبغي أن يتبعه من رُفض قربانه أن يتحلى بالتقوى والتواضع مدركًا أن الله تعالى هو الذي رفض قربانه وليس أخوه، ولكنه حمل العصا وجاء إلى أخيه وقال لأقتلنّك. أما أخوه فاتبع سبيل العقل والمنطق وقال له: إن الله هو الذي يقبل القرابين من الناس، فإذا لم يقبله منك فلا ذنب لي في ذلك، فإنما أنا عبد متواضع.

وهذه هي الفطرة الإنسانية منذ القدم، حين لم تكن هناك أية مصطلحات كالدكتاتورية والجمهورية، ولكن الروح التي تؤدي إليهما كانت موجودة. وهذان التياران المتوازيان مستمران منذ خلق آدم أو منذ خلق الكون. إذ وُجدت في الدنيا طبقة من الناس لم تزل متمسكة بالحقّ والإنصاف، وطبقة أخرى تتباهى بقوتها ومنعتها ولا تبرح تعلن أنها ستفرض رأيها على الآخرين في كل حال، وإذا لم يتبع الناس رأيها فستُرغمهم على ذلك من خلال القوة التي تتمتع بها حكومتها وحزبها. وبما أن جماعات الأنبياء تكون صغيرة في بدايتها دائمًا، بل تكون أحيانًا قليلة العدد لدرجة أن الرسول ﷺ قال: "إنه لم يؤمن ببعض الأنبياء إلا شخص واحد" (البخاري: كتاب الطب، باب من لم يرقِ)، ومن أجل ذلك يستهزئ بهم الجميع ويعتبرون دعواهم ضربا من الجنون. وإن غرور فرعون بقوته جعله يبعث المنادين إلى كل المدن ليحرّضوا الشعب ضد بني إسرائيل ويقولوا: كيف تجرؤ هذه الجماعة الصغيرة الحقيرة على إثارة غيظنا مع أننا نشكل الأكثرية الساحقة، ونملك العدّة والعتاد

ونعمل بحذر وبُعد نظر، فمن واجبنا أن نسحق هؤلاء الأراذل بكل قوة ونغلق في وجوههم كل باب للرقي.

فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٨﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٩﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٦٠﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦١﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٣﴾

شرح الكلمات:

كنوزٌ: جمع كنز: والكنز: اسمٌ للمال إذا أُحرزَ في وعاء؛ الذهبُ والفضّة؛ ما يُحرَز فيه المال كالمخزن والصندوق. (الأقرب)

مُشْرِقين: جمعُ مُشرِق، وأشرقَ الرجلُ: دخَل في شروق الشمس. (الأقرب)

التفسير: كان فرعون مغرورا بكثرة جنده وقوته، وكان يحتقر بني إسرائيل احتقارا شديدا، فلما علم أن موسى قد ذهب ببني إسرائيل خرج بجنوده لمطاردتهم. يقول الله ﷻ هكذا أخرجنا فرعون وجنده من البساتين والعيون والكنوز وبلاده التي كان معززا فيها وجعلنا بني إسرائيل ورثة لهذه النعم.

والجدير بالملاحظة هنا أن الله ﷻ قد قال عن فرعون وجنوده أننا ﴿أَخْرَجْنَاهُمْ﴾، مع أنهم قد خرجوا من هناك بأنفسهم في الظاهر. والحق أن الله تعالى قد نسب هذا الفعل إلى نفسه لأن فرعون إنما خرج من هناك بسبب موسى الذي جاءه في مصر ثم خرج منها، والواضح أن موسى عليه السلام لم يذهب إلى فرعون ولم يخرج ببني إسرائيل من مصر إلا بأمر الله ﷻ، وهكذا فإنه تعالى هو الذي أخرج فرعون وجنوده ولو بطريق غير مباشر.

أما قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ فليس المراد أن الله تعالى أعطاهم نفس البساتين والعيون والكنوز التي كان يملكها فرعون وقومه، بل المعنى أنه تعالى أورثهم بساتين وعيونا وكنوزا مماثلة في فلسطين.

يظن البعض خطأً أن بني إسرائيل أصبحوا مسيطرين على مصر، ولكنه ظنّ باطل لا يصدّقه القرآن ولا التوراة. إنهما يبيّنان أن بني إسرائيل بعد أن خرجوا من مصر ظلوا تائهين في البراري مدّة طويلة نتيجة عصيانهم، وبعد قضاء أربعين سنة في التيه استولوا على أرض كنعان. فليس المراد من قوله تعالى: ﴿أَورَثْناها﴾ أرض مصر، بل أرضٌ تيسّرت لهم فيها كل تلك النعم، وهي أرض فلسطين التي فيها البساتين والعيون كما في أرض مصر..

أما قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ فيكشف أن فرعون وجنوده خرجوا لمطاردة موسى عليه السلام عند شروق الشمس، أما موسى فكان قد أخذ أُهبته للسفر مسبقًا، فخرج قبل جنود فرعون؛ ولكن لما تراءت الفئتان خاف أصحاب موسى الذين ظلوا عبيدا لفرعون منذ قرون، ورفعوا عقيرتهم قائلين: يا موسى إنا لمدرَكون. فهدّأ موسى عليه السلام من جزعهم وقال: لا تقولوا هكذا! إن هؤلاء الجنود معهم فرعون، أما جنودي فمعهم الله تعالى، وسوف يعبُر بنا البحر حتمًا.

لا شك أن هذا نموذج عظيم للثقة بالله تعالى من قبل موسى عليه السلام، ولكننا لا يسعنا إنكار الحقيقة أن نموذج التوكل واليقين والإيمان الكامل الذي نراه في حياة الرسول ﷺ حين كان محدقًا بأخطار أشد وظروف أحلك لهو أسمى وأرفع شأنًا وأدعى للإيمان من توكل موسى عليه السلام. فعندما أمره الله سبحانه وتعالى بالهجرة اصطحب أبا بكر وخرج إلى جبل ثور الواقع على مسافة ستة أميال من مكة، واختبأ في غار في قمة الجبل. وفي الصباح لما لم يجده الكافرون في بيته وعلموا أنه قد خرج من بينهم رغم محاصرتهم إياه، خرجوا لتوِّهم يبحثون عنه مستعينين بأفضل قصّاصي الأثر في مكة. فوصل بهم إلى مدخل الغار متتبعًا آثارهما، وقال: إذا كان محمد في مكان على الأرض فهو هنا، إذ لا أجد آثار الأقدام بعد ذلك. كان العدو واقفا على رأس الغار و لم يكن مدخله ضيقا حتى يصعب عليهم أن يطلّوا منه إلى الداخل ليروا ما

إذا كان بداخله أحد أم لا، بل كان مدخله واسعا. ورغم ذلك لم يصب النبيَّ ﷺ خوف ولا ذعر، بل إن قوته القدسية قد جعلت قلب أبي بكر أيضًا قويًا الذي لم يقل كأصحاب موسى ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ بل كل ما قاله هو: يا رسول الله، لقد اقترب العدو منا جدا بحيث لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا. فقال له النبي ﷺ: "يا أبا بكر، ما ظنُّك باثنين اللهُ ثالثهما".. أي لسنا اثنين بل إن الله معنا، فكيف يمكن أن يرونا؟ (البخاري: كتاب التفسير، باب قوله: ﴿ثاني اثنين إذ هما في الغار...﴾، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي بكر ﷺ، والسيرة الحلبية). وهذا ما حصل بالضبط، فبرغم أن الأعداء كانوا قد وصلوا إلى مدخل الغار إلا أنهم لم يتقدموا ليطلّوا داخله، بل رجعوا متأسفين حانقين.

إذًا، هناك عدة جوانب في هذا الحادث تسترعي الانتباه، أولها: أن أصحاب موسى عليه السلام قالوا مذعورين ﴿إِنَّا لمدرَكون﴾، وهذا يعني أنهم ظنوا أن فرعون سيقبض على موسى معهم، ولكن توكُّل النبي ﷺ على ربه قد أثّر في صاحبه أيضا فلم يقل "إنا لمدرَكون" بل قال: لقد اقترب منا العدو بحيث يستطيع أن يرانا. ولكن النبي ﷺ لم يرض بهذا الظن أيضا وقال: لا تظنّ هكذا، فإننا لسنا وحدنا بل نحن ثلاثة حيث إن الله ﷻ معنا.

وثانيها: أن موسى عليه السلام لما خرج من مصر كان معه آلاف من بني إسرائيل الذين قد جعلتهم التوراة مئات الآلاف على سبيل المبالغة (الخروج ١٢: ٣٧-٣٨)، أما النبي ﷺ فلم يكن معه جمعٌ غفير بل شخص واحد، وإن كان هذا الشخص الواحد يزيد على مئات الآلاف بسبب إيمانه.

وثالثها: أنه كان أمام موسى عليه السلام وأصحابه مجال للفرار، أما النبي ﷺ فكان محصورا في الغار لا يمكنه الفرار منه. وبرغم أن النبي ﷺ كان معه شخص واحد، وبرغم أنه لم يكن أمامه طريق للفرار، وبرغم أنه لم يكن معه أي سلاح، إلا أنه ﷺ كان واثقا بالله ﷻ لدرجة أنه قال لأبي بكر: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾(التوبة:٤٠).

ورابعها: قال موسى عليه السلام: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾.. أي سيدلني على طريق النجاح، أما محمد ﷺ فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾، وهكذا شمل أبا بكر معه وقال له: إنك أيضا تتمتع بمعية الله مثلي، فلا داعي للقلق.

وخامسها: أليس غريبًا أن فرعون لما خرج في مطاردة موسى عليه السلام وأصحابه فإنه رآهم، أما النبي ﷺ فإن أهل مكة لما خرجوا لمطاردته أعماهم الله سبحانه وتعالى، فلم يفشلوا في القبض عليه فحسب، بل لم يستطيعوا أن يروه أيضًا، وهكذا جعلهم خائبين خاسرين تماما. وأما سُراقة الذي تمكّن من رؤية النبي ﷺ أثناء هجرته إلى المدينة فلم يرجعه الله تعالى إلى مكة إلا بعد أن رأى آية صدق النبي ﷺ ومكانته العظمى. وهذا يعني أن العدو لم يتمكن من رؤية النبي ﷺ خلال هجرته إلا مرة واحدة، وإن العدو لم يحرز أي نجاح إذ لم يستطع أن ينال من النبي ﷺ شيئًا، بل إن النبي ﷺ هو الذي تمكن من صيده، حيث اعترف بصدقه ﷺ وعظمته وقت الهجرة وإن كان قد أسلم يوم فتح مكة. (الإصابة: حرف السين، سُراقة بن مالك، مجلد ٣ ص ١٣٥)

فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٤﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٥﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٩﴾

شرح الكلمات:

انفلق: انفلق أي انشقّ. (الأقرب)

فِرق: الفِرق الطائفة من الشيء المتفرّق. (اللسان)

الطَود: الجبلُ العظيم؛ المُشْرِف من الرمل؛ الهضبةُ. (الأقرب)

أَزْلَفْنا: أزلَفَه: قرّبه؛ جمَعه. (الأقرب)

التفسير: يخبرنا الله تعالى هنا أنه أوحى إلى موسى عليه السلام أن يضرب بعصاه البحر، فضربه، فانشق، فتراءى كل من ماء البحر وماء البحيرات الصغيرة الموجودة قريبًا من البحر كتلال مرتفعة، فقرّب الله تعالى جنود فرعون من ذلك المكان، فمرّ موسى عليه السلام بسهولة من اليابسة المنكشفة بين البحر والترع، بينما أصيب فرعون وجنوده بالذعر حيث أخذت عجلات عرباتهم تغوص في الرمال، فلم يستطيعوا عبورها حتى فاجأهم المدّ وأغرقهم جميعًا.

لقد ذكرت التوراة هذه المعجزة كالآتي:

"ومدَّ موسى يده على البحر، فأجرى الرب البحر بريح شرقية شديدة كل الليل، وجعل البحر يابسة وانشق الماء. فدخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليابسة والماء سُورٌ لهم عن يمينهم وعن يسارهم. وتبعهم المصريون ودخلوا وراءهم جميعُ خيل فرعون ومركباته وفرسانه إلى وسط البحر. وكان في هزيع الصبح أن الرب أشرف على عسكر المصريين في عمود النار والسحاب وأزعج عسكر المصريين، وخلع بَكَرَ مركباتهم حتى ساقوها بثقلة. فقال المصريون: نهرب من إسرائيل لأن الرب يقاتل المصريين عنهم. فقال الرب لموسى: مُدَّ يدك على البحر ليرجع الماء على المصريين على مركباتهم وفرسانهم. فمدّ موسى يده على البحر، فرجع البحر عند إقبال الصبح إلى حاله الدائمة والمصريون هاربون إلى لقائه. فدفع الرب المصريين في وسط البحر. فرجع الماء وغطى مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذي دخل وراءهم في البحر، لم يبق منهم ولا واحد. وأما بنو إسرائيل فمشوا على اليابسة في وسط البحر والماءُ سورٌ لهم عن يمينهم وعن يسارهم. فخلّص الرب في ذلك اليوم إسرائيل من يد المصريين. ونظر إسرائيلُ المصريين أمواتا على شاطئ البحر، ورأى إسرائيل الفعل العظيم الذي صنعه الرب بالمصريين، فخاف الشعبُ الربَّ وآمنوا بالرب وبعبده موسى." (الخروج ١٤: ٢١-٣١)

لقد ذكر المفسرون القدامى بصدد هذه المعجزة قصصًا عجيبة غريبة، فقالوا في تفسير قوله تعالى: ﴿فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ إن موسى عليه السلام "ضرب البحرَ فصار وانشقّ اثني عشر فلقًا بعدد الأسباط" (فتح البيان)، لتعبر كل قبيلة من مسلك منفصل.

وقد بالغ البعض أكثر فقال إن جدارًا مائيًا حال بين كل قبيلة وأخرى، فلم يستطع بعضهم رؤية بعض، فقالوا لموسى: لن نتقدم خطوة واحدة ما لم يرَ بعضنا بعضًا. فدعا موسى ربه، فأمره الله سبحانه وتعالى أن يُدخل عصاه بين الجدران المائية الحائلة بينهم، ففعل، "فصارت فيها كُوى فتراءَوا وتسامعوا كلامهم"، وعبروا البحر فرحين مسرورين. (الكشاف)

ولا شك أن المفسرين قد ذكروا هذه القصة إشباعًا لطبائعهم المعجَبة بالعجائب والغرائب. ليتهم ذكروا أيضًا طول عصا موسى عليه السلام التي تمكن بتمريرة واحدة بها من ثقب جميع الجدران المائية الحائلة بين اثني عشر مسلكًا مرّ بها اليهود. وليتهم بيّنوا أمرًا آخر، وهو أن بني إسرائيل إذا كانوا متحابّين فيما بينهم بحيث رفضوا عبور البحر إلا ويرى بعضهم بعضًا، فلماذا لم يعبروه من طريق واحد؟ ولماذا اختارت كل قبيلة طريقًا منفصلاً؟ فعبورهم البحر من طرق مختلفة في ذلك الوقت الحرج الذي كان فرعون يطاردهم فيه، وحبُّ بعضهم لبعض لدرجة أنهم قد رفضوا التقدم خطوة واحدة إلا إذا كانوا يرون بعضهم بعضًا، لأمرانِ متعارضان يدلان على أن القصة كلها كذب وافتراء.

كل ما في الأمر أن الله سبحانه وتعالى قد أتى ببني إسرائيل إلى البحر وقت الجزر، فما إن ضرب موسى عليه السلام بعصاه البحر حتى أخذ الماء ينحسر. وعندما وصل فرعون البحر كان موسى عليه السلام قد عبر معظم اليابسة التي انحسر عنها ماء البحر، فلما رآهم فرعون يعبرون البحر من ذلك المكان أسرع وراءهم بعرباته. ولكن رمال البحر أدّت إلى هلاكه وجنوده حيث أخذت عجلات عرباتهم تغوص في الرمال، وقضوا وقتًا طويلا في محاولة إخراجها من الرمال، حتى حان وقت المد، فرجع الماء وأغرق فرعون وجنوده.

والحق أن قوله تعالى ﴿فانفلق﴾ أيضًا يشير إلى هذه الحقيقة، لأن الانفلاق يعني الانشقاق والانفصال. والمراد من انفلاق البحر أن ماءه انحسر عن الشاطئ، فظهرت اليابسة، فمرّ بها بنو إسرائيل والبحرُ على جانب منهم والبحيراتُ الصغيرة الواقعة قريبًا من البحر على جانبهم الآخر، وتراءت لهم مياه البحر والبحيرات كتلال مرتفعة.

يقول الله ﷻ مشيرًا إلى هذه المعجزة العظيمة: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۝ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.. أي تكمن في هذه الواقعة آية عظيمة تدل على قدرة الله ﷻ وعظمته، ولكن المؤسف أن الناس يتعامون عن هذه الآيات العظيمة ولا يحظون برضاه وحبه من خلال الإيمان بأنبيائه. فكلما يأتيهم نبي من عنده ﷻ يكفر به الأكثرية منهم، وقليل هم الذين ينالون شرف الإيمان به. مع أن المفروض بعد رؤية هذه الآيات العظيمة أن تلبي الأكثرية منهم نداء الله تعالى، ولا يحرم من ذلك إلا قلة قليلة جدًا. ولكن الغريب والمؤسف جدًا أن الناس لا يفتحون عيونهم لرؤية الحق رغم ظهور مثل تلك الآيات العظيمة أيضًا، بل يصرون على الرفض والإنكار والمعارضة، وبالرغم من إنكارهم يعلن الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.. أي أنه تعالى يجعل أنبياءه غالبين كبرهان على كونه تعالى عزيزًا، ورغم استهزائهم وكفرهم يبعث رسوله مرة أخرى عند ظهور الفساد في الأرض، كدليل على أنه تعالى رحيم. ذلك أن ﴿الرحيم﴾ على وزن فعيل، والكلمات العربية التي تكون على هذا الوزن تدل دائمًا على الاستمرار والتواتر؛ وعليه فقد أشار الله ﷻ بذكر صفته "الرحيم" هنا إلى سنّته المستمرة منذ الأزل أنه كلما ظهر الفساد في الأرض بعث الله ﷻ أحدًا من عنده ليأتي إليه بعباده الضالين التائهين ويوصلهم به ثانية. فلم يُبعَث في الدنيا نبي قط لم يتغلب على أعدائه، ولم يحدث قط في الدنيا أن أهلها فسدوا ولم يهيئ الله ﷻ الأسباب لإصلاحهم. لقد جاء آدم فعارضه الناس، ولكن الله ﷻ لم يقل بسبب معارضتهم: حسنًا لن نبعث إليهم بعد ذلك نبيًا، بل بعث نوحًا بعد آدم لهدايتهم. فتعرض نوح أيضًا للمعارضة الشديدة، ومع ذلك لما وجد الله ﷻ عباده قد ضلوا بعده أقام إبراهيم لهدايتهم.

فواجه إبراهيم أيضًا معارضة شديدة حتى ألقوه في النار، ورغم ذلك بعث ربنا الرحيم موسى لهداية البشر، ثم بعث من بعده في أمته مئات الأنبياء الذين قد قُتل بعضهم أيضًا، ورغم العداء الشديد الذي تعرض له الأنبياء قد بعث الله تعالى نبيَّه ﷺ لهداية الناس حين رأى أن الفساد قد ظهر في البر والبحر.

إذًا، فإننا نجد في كل عصر الدلائلَ على كون الله ﷻ عزيزًا حيث كان الله ورسله هم الغالبين في كل عصر كما يعلن الله ﷻ في موضع آخر من القرآن الكريم: ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾(المجادلة:٢٢). كما نجد البراهين على كون الله ﷻ رحيما أيضًا في كل عصر، بمعنى أنه تعالى لم يزل – رغم معارضة الناس لأحبته بكل شدة – يبعث رسله لهدايتهم مرة تلو أخرى. وقد ذكر الله ﷻ في قصة موسى عليه السلام صفتيه "العزيز" و"الرحيم" لأنها قد أكدت أن الله عزيز حيث صار موسى عليه السلام غالبا على فرعون الذي دُمّر تدميرًا، برغم أن موسى عليه السلام لم يملك أية قوة إزاء فرعون وجنوده. كما برهنت هذه المعجزة على أن الله ﷻ رحيم أيضًا، حيث لم يمتنع ﷻ عن بعث رسله إلى الناس على الرغم من تعرُّض نبيه موسى لمعارضة شديدة، بل كلما ضرب عبادَه الجوعُ والإفلاس روحانيًا بعث رسله لمساعدتهم وإصلاحهم.

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧٢﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٣﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٥﴾

شرح الكلمات:

أصنامًا: الأصنام جمعُ صنم وهو صورةٌ أو تمثالُ إنسانٍ أو حيوانٍ يُتّخذ للعبادة، أو كلُّ ما عُبد من دون الله. (الأقرب)

وورد في "المفردات": بل كلُّ ما يشغل عن الله تعالى يقال له صنم.

عاكفين: العكوف: الإقبالُ على الشيء وملازمتُه على سبيل التعظيم له. (المفردات)

التفسير: هنا يأمر الله تعالى رسوله أن يتلو الآن على قومه – للتدليل على كون الله عزيزًا – قصة إبراهيم الذي علّم قومه التوحيد ونهاهم عن عبادة الأصنام.

كان إبراهيم عليه السلام من مدينة "أُور" في بلاد الكلدانيين، وقد ولُد في عائلة تعبد الأصنام، بل تنحتها وتعيش على بيعها وما يُقَدَّم لها من قرابين. تُوفي أبوه وهو طفل صغير، فتربّى عند عمّه، وعندما بدأ يعي الأمور جعله عمه يشتغل في بيع الأصنام مع أولاده. لم يدر عمه الجاهل بالحقيقة أن هذا القلب الذي قد اختاره خالق الكون لا يمكن أن يكون فيه مكان للأصنام. ففي أول يوم بدأ إبراهيم العمل في محل عمه جاء شيخ عجوز ثري لشراء صنم، ففرح أبناء عمه بأنهم سيربحون اليوم ربحًا كثيرا. فاختار العجوز صنمًا وأراد دفع ثمنه، فتوجه إبراهيم الصبي إلى الزبون وقال له: أيها العجوز، ماذا ستفعل بهذا الصنم وقد بلغت من الكبر عتيًا؟ قال: سأحمله إلى بيتي وأضعه في مكان نظيف طاهر وسأعبده. فلم يتمالك الطفل مشاعره وسأل العجوز: كم عمرك؟ فأخبره عن عمره. فضحك الطفل ساخرًا وقال: ألا تستحي وقد بلغت هذه السن الكبيرة أن تخرّ ساجدًا أمام الصنم الذي قد صنعه عمّي قبل أيام؟ الله أعلم ما إذا كان جواب الطفل قد أشعل جذوة التوحيد في قلب العجوز أم لا، إلا أنه لم يستطع شراء الصنم بل رماه وذهب. فسخط أبناء عم إبراهيم لأنهم خسروا زبونًا جيدًا، فشكوه إلى أبيهم "تارح"، فعاقبه عقابًا شديدًا. (الموسوعة اليهودية تحت كلمة: Abraham)

وكان هذا أوّل عقاب تحمّله هذا الصبي الطاهر الصغير السن في سبيل وحدانية الله تعالى، ولكنه زاده حماسًا وتمسّكا بوحدانية الله تعالى بدلاً من أن تخمد جذوتها في قلبه. فقد دفعه هذا العقاب إلى التفكير والتدبر الذي فتح عليه نوافذ المعرفة.

حتى إذا بلغ رشده تحوَّل طِيبه الفطري إلى عقيدة راسخة. وفي الأخير نزل النور الإلهي على نور عقله، ونـــزل عليه نور الوحي والإلهام، فشرّفه الله بالنبوة ليقوم بمهمة إصلاح الدنيا.

ولما كانت عائلة إبراهيم عليه السلام كلّها تعيش على ما تدرّه عليها تجارة الأصنام، وكان عمه "تارح" نفسه يعبد الأصنام كما هو ثابت من سفر يشوع ٢٤: ٢ من التوراة، فقال له عمّه وأبناؤه إننا كما تعلم يا إبراهيم، عائلة من الكهّان وليس لنا أي مورد آخر للدخل، فإذا امتنعت عن عبادة الأوثان انقطع رزقنا. فأجابهم الصبي بكل شجاعة: لن أسجد لأصنام يصنعها الناس بأيديهم.

والحق أن من المحال أن يعرف عظمة جواب إبراهيم إلا الذي أتيحت له فرصة التضحية في سبيل الله تعالى. فبرغم أنه توجد في هذا العصر حكومات منظمة، ويسوده الأمن والسلام، ولا يتعرّض فيه المرء لكثير من المحن والشدائد لو دخل في الأحمدية، ومع ذلك يكتب إليّ بعض من ينكشف عليهم صدق الأحمدية من ذوي الثقافة والذين لديهم أهل وعيال ويقولون: كيف تواسوننا وماذا يكون مورد رزقنا إذا دخلنا في الأحمدية؟ أما إبراهيم عليه السلام فكان كسير القلب سلفًا، إذ كان يتيمًا لا أهل له ولا أقارب إلا عمّه الذي كان يربّيه، ومع ذلك لم يفكّر إبراهيم في كيفية عيْشِه إذا ما طرده عمُّه، بل أجاب بكل شجاعة وبدون تردد: لن أسجد لأصنام يصنعها البشر!

لقد وقع حادث مماثل مع النبي ﷺ، وذلك أنه لما طالت دعوته ضد الشرك ويئس رؤساء مكّة من إرجاعه وأصحابه إلى دينهم رغم جهودهم المضنية، أتوا عمه أبا طالب وقالوا: إن ابن أخيك يستحق أن نعامله بالقسوة، ولكنا لم نتشدد عليه حتى الآن من أجلك. إنه لا يزال يسيء إلى آلهتنا إساءة كبيرة رغم عيشه تحت حكمنا، وقد استفحل أمره الآن ولن نصبر أكثر من ذلك، وقد جئناك لنخبرك بقرارنا النهائي بأن تنصحه بالكفّ عما يفعل. إننا لا نمنعه من عرض تعليمه على الناس وإنما نريد أن لا يتكلم عن آلهتنا بسوء وشدة بل يلين في دعوته، ولو لم ينتصح بنصحك من أجلنا، فعليك بأن تقاطعه وتخلي بيننا وبينه، ولئن لم تقبل بقرارنا فلن

نصبر أكثر من ذلك، فقد بلغ السيل الزُّبى، ولسوف نقاطعك أيضا رغم احترامنا لك واعترافنا بفضل عائلتك.

لم يكن أبو طالب مؤمنا بالرسول ﷺ و لم تكن عنده تلك الشجاعة التي تتولد في قلب المرء بعد الإيمان. لقد كان من رؤساء القوم وكان أخوف ما يخافه أن يفقد الرئاسة. كانت مكة كلها تحترمه وتبجله، فإذا لم يتخل عن النبي ﷺ فسيُعرض عنه الجميع. وهذا لم يكن بأمر هيّن، حيث يبذل الناس الكثير حفاظا على مثل هذا الشرف والمكانة، ويودّون أن يأتي الناس إليهم للتبجيل والتعظيم. كان حضرة المولوي نور الدين ﷺ الخليفة الأول للمسيح الموعود لما رجع إلى وطنه "بهيرة" بعد انتهائه من الدراسة* أثار بعض المشايخ ضجة كبيرة ضده بأنه وهّابي، وقادوا حملة تكفير ضده. وكان هناك شيخ كبير للمتصوفين ذو نفوذ كبير في "بهيرة" وما حولها. فذهب إليه المشايخ بفتوى التكفير ليوقع عليها. وكان أصدقاء الخليفة الأول ﷺ لا يخافون المشايخ، ولكنهم خافوا أنه لو انضم شيخ المتصوفين هذا إلى صف المشايخ، فستقع فتنة كبيرة. فذهب أحد زملائه ﷺ الأذكياء إلى شيخ المتصوفين وقال له: سمعت أن المشايخ قد جاءوا حضرتك لتوقّع لهم على فتوى التكفير. فقال: نعم، لقد جاءني هؤلاء، وأرى أنهم مصيبون في موقفهم، وأريد أن أوقّع على فتواهم. قال: إن حضرتك شيخ المتصوفين، ويأتيك الناس ليقدموا لك تحية التبجيل والتعظيم. ومهما كان نور الدين مخطئًا فإنه يقدم لك التحية، ولكنك إذا أفتيت ضده، فسوف يمتنع هو وأصدقاؤه عن تقديم تحية التبجيل لك. فخاف الرجل وقال: ما لنا وللفتاوى؟ عليك أن تقول للمولوي نور الدين أن لا يمتنع عن إلقاء السلام علينا. فرجع صديق الخليفة الأول ﷺ وأخبره بما فعل، وأن شيخ المتصوفين ينتظر منه أن لا يتوقف عن تقديم التحية له. فقال حضرته ﷺ: ما الحرج أن نسلّم عليه؟ فرجع هذا الشخص إلى شيخ المتصوفين وأخبره أن نور الدين يقول إن

* علمًا أن هذه الواقعة حدثت قبل انضمامه ﷺ إلى الأحمدية بزمن طويل. (المترجم)

حضرة الشيخ شخصية كبيرة، وكيف يمكن أن نمتنع عن تقديم التحية له! ففرح الشيخ جدًا وقال: سوف نمرّ من طرف المولوي نور الدين في يوم كذا وقل له أن لا ينسى تقديم التحية لنا. فمرّ في اليوم الموعود من أمام عيادة حضرة المولوي نور الدين ﵁، فخرج حضرته مع رفاقه للتسليم عليه. فأوقف الشيخ حصانه وبدأ يقول لحضرته ﵁: لقد جاءنا المشايخ بفتواهم، ولكنا رفضنا التوقيع عليها، وقلنا لهم: ما لنا ولهذه الأمور، فإن الجميع يقدمون لنا التحية. وشاع خبر هذا الحادث في المدينة، فانفصل مريدو شيخ المتصوفين عن الحركة المناوئة لحضرة الخليفة الأول ﵁ وهدأت عاصفة المعارضة.

إذًا فكان أبو طالب أمام اختبار صعب، فكانت مكة كلها تبجّله، وكان يخاف على مكانته المرموقة، فدعا النبي ﷺ وقال: يا ابن أخي، أعلم أن ما تفعله إنما تفعله باعتباره حقًّا، وقد ساندتك دائمًا وحَمَيتُك من الأعداء، ولكن القوم قد جاءوني اليوم وهددوني قائلين: قل لابن أخيك أن يلين في الدعوة، وإن لم يفعل فعليك أن تتخلى عن حمايته وإلا فسوف نقاطعك. وأنت تعلم يا ابن أخي أن مقاومة القوم كلّهم أمر صعب، فانظر ماذا ترى! فاغرورقت عينا النبي ﷺ بما سمع من عمه وقال: يا عم، إنني أكن لك احتراما كبيرا، ولكني لن أرضى بما تقول إزاء الحق، ولو أنهم وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري، فلن أرضح لمطلبهم ولن أمتنع عن نشر التوحيد! إنني مستعد أن أضحي لك بكل غال ورخيص، ولكني لن أرضى بما تقول، ويمكنك أن تتخلى عن حمايتي، وتصالح القوم، والله يكفيني. وبرغم أن ترك القوم كان صعبًا جدًّا على أبي طالب، ولكن جواب النبي ﷺ ترك فيه وقعًا كبيرًا، فقال: فليخذلني قومي إذا شاءوا ولكني لن أخذلك. (السيرة النبوية لابن هشام: المجلد الأول، مباداةُ رسول الله ﷺ قومَه وما كان منهم)

لا يمكن أن يقدّر مدى أهمية جواب أبي طالب إلا الذين هم ملمون بحادث آخر يدلّ على حالة قلبه. وذلك أنه لما دنا أجله أصاب النبيَّ ﷺ قلق شديد لما كان يكنّه له من حب عظيم. لقد تذكّر كل ما فعله من أجله من حسن المعاملة والتضحيات الأخرى، فآلَمه أن يموت مثل هذا الإنسان المحسن دون أن يُسلِم! فأخذ النبي ﷺ يأتي

عمه من اليمين حينًا ومن الشمال حينًا، ويقول له: يا عمّ، الموت قريب، فاشهَدْ أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله. ولكن أبا طالب لزم الصمت و لم يستجب له. فأصرّ النبي ﷺ كثيرًا واستولت عليه الرقّة وهو يقول: يا عمّ، انطق بالشهادة مرة على الأقل لكي أشهد أمام الله تعالى بأنك قد أسلمت. فقال له أبو طالب في الجواب أخيرًا: إنني لا أستطيع ترك دين قومي (السيرة الحلبية: المجلد الأول ذكر وفاة عمه أبي طالب وزوجته ﷺ خديجة).

وهذا يعني أنه كان يحب قومه كثيرًا بحيث إنه لم يرد أن يدخل الجنة بدونهم. ولكن هذا الشخص الذي كان يكنّ هذا الحب الشديد لقومه قد تأثر ببسالة النبي ﷺ في الجواب فقال: فليتركني قومي لو شاءوا ولكني لن أخذلك أبدًا.

ينقل جوزيفوس المؤرخ اليهودي الشهير عن المصادر القديمة أن إبراهيم عليه السلام هو أول إنسان أعلن بكل شجاعة أن الله تعالى خالق وواحد، وأنه هو المتصرف في النجوم التي تتحرك بأمره. ولما كان الكلدانيون – وهم قومه – يعبدون النجوم، فثاروا عليه غضبًا لمعارضته عبادة النجوم، فاضطر للهجرة من وطنه إلى كنعان.

وقيل إن إبراهيم كان ابن أربعة عشر عاما حين ترك أباه فرارًا من عبادة النجوم والأوثان، ودعا ربه أن ينقذه من أخطاء البشر.

وورد أيضا أن إبراهيم عليه السلام اخترع بعض الطرق المفيدة في الزراعة، ودعا أباه "تارح" إلى وحدانية الله تعالى، ولكنه كان يأمره أن يلتزم الصمت خوفًا من القوم. وعندما عارضه إخوته أشعل النار في معبد الأوثان، فمات أخوه "حاران" أثناء محاولته لإنقاذ بعض الأصنام – يبدو من هذا أن تلك الأصنام كانت من الخشب ومن أجل ذلك ورد أيضًا أن إبراهيم قطعها بالسيف.

وورد أيضا أن إبراهيم عليه السلام كان يراقب القمر عند طلوعه في بداية السنة ليعلم كيف تكون المعيشة في تلك السنة، فأوحى الله إليه وقال: ما قيمة تأثير النجوم أمام المشيئة الإلهية. فقام إبراهيم بدعاء كثير، وترك قومه من أجل إرساء دعائم الحقائق السامية في العالم.

وفي بعض الروايات أنه تلقى العلم الحقيقي وعمره ثلاث سنوات، أو عشر سنوات، أو أربعين سنة بحسب مختلف الروايات. وهناك تفاصيل كثيرة عن إبراهيم عليه السلام في كتب الربّيّين الفلسطينيين، إذ ورد فيها أن الملك المعاصر له كان اسمه نمرود. وتذكر هذه الروايات المفصّلة قصة القمر والنجوم كالآتي: لقد خبّأ "تارح" إبراهيمَ ثلاث سنوات خوفًا من الملك نمرود الذي كان يريد قتل أبنائه – لأن المنجمين أخبروه أنه قد وُلد طفل سيقضي على حكمه. فلما خرج إبراهيم من مخبئه ورأى الشمس ظنّها إلـــهًا، فلما أفلتْ ظنّ أن القمر هو الإله وأن النجوم خدمه، فلما طلع الصبح قال: ليست الشمس ولا القمر إلـــهًا إنما الإله غيرهما. فسأل أباه: من الذي خلق السماوات والأرض؟ قال: إن إلهنا هذا الصنم الذي أمامنا. فقال إبراهيم سأقدم له نذرا. فأعد طعامًا وقدّمه إليه، ولكنه لم يأكله. فأعد طعامًا أجود من ذي قبل وقدّمه إليه، ولكنه لم يأكل. فأحرقه مع الأصنام الأخرى. ولما رجع أبوه تارح قال: من أحرقها؟ فقال: لقد سخط الصنم الكبير على الأصنام الصغيرة وأحرقها! قال أبوه: أيها الأحمق، كيف يمكن أن يحرقها من لا يسمع ولا يرى ولا يمشي؟ قال إبراهيم: فلمَ تعبدها إذًا وتترك الإله الحي؟

وذات يوم جاءت امرأة بطعام نذرًا للأصنام، فقال إبراهيم: إن لهم أفواهًا لا يتكلمون بها، وعيونًا لا يبصرون فيها، وآذانًا لا يسمعون بها، وأيدي لا يبطشون بها، فليكنْ مثلَها من صنعها وآمن بها. ثم هب إبراهيم وكسّرها ثم أحرقها. فذهبوا به إلى نمرود فقال له: ألم تعلم أنني أنا الإله والحاكم على الكون كلّه؟ فأجابه إبراهيم: إذا كنت أنت الإله والحاكم على الكون، فأْتِ بالشمس من المغرب بدلاً من المشرق، وإذا كنت أنت الإله والحاكم على الكون، فأخبِرْني بما هو في نفسي الآن، وماذا سيكون مصيري؟ فبُهت نمرود ولم يستطع الجواب. واستمر إبراهيم في كلامه وقال: إنما أنت ابن "كونوس"، وإنك فانٍ مثله. لم تستطع إنقاذ أبيك من الموت، ولن تنجو منه أنت أيضًا.

وورد أيضا أن نمرود قال لإبراهيم عليه السلام: يجب أن تعبُد النار. قال: ولِمَ لا أعبد الماء التي يطفئها؟ قال: حسنًا، اعبُد الماء. قال: ولِمَ لا أعبد السحب المترعة بالماء؟

قال: حسنًا، اعبُدْها. قال: لم لا أعبُد الرياح التي تسوق السحب أيضًا. قال: حسنًا، اعبُد الرياح. قال: ولكن الإنسان ينجو من ضرر الرياح ويختبئ في البيت. قال نمرود: فاعبدني أنا، فإني ملِكُ الناس! قال: إن كنت إلـــهًا فأت بالشمس من المغرب. فأمر نمرود بإحراقه. فجمعوا الخشب وأعدّوا محرقة مساحتها خمسة أمتار مربّعة وأشعلوا فيها النار، وألقوا إبراهيم فيها. وإلى ذلك يشير ما ورد في التكوين ١٥: ٧. علمًا أنه قد ورد في بعض النسخ من التوراة في هذا المكان: "أخرجَك من نار الكلدانيين." (الموسوعة اليهودية تحت كلمة: Abraham)

وكانت عبادة الشمس شائعة في منطقة "كلديا" خاصة، وكان اسم إله الكلدانيين مينوداك (Menodack). كانوا يظنون أنه شعاع الشمس أو ضوء النهار وأنه ينفع الناس. وكانوا يسمونه بَعْلاً أي سيدًا أيضًا. وكان من أصنامهم الآخرين: صنم اسمه "الشمس" أي إله الشمس، وصنم آخر اسمه "السين" أي إله القمر، وصنم ثالث اسمه "نيبو" أي الإله النبي أو الإله المعلّم. (Nelsons Encyclopedia: vol.3: Babylonia)

وإشارةً إلى الأحداث نفسها قال الله تعالى هنا لرسوله الكريم ﷺ: إذا كان قومك لا يتّخذون العبرة من أحداث موسى وفرعون، فاقرأْ عليهم وقائع إبراهيم لأن أهل مكّة يعظّمون هذا النبيّ تعظيمًا كبيرًا. واذكر لهم خاصة ما جرى بين إبراهيم وأبيه وقومه من حوار إذ قال لهم: ما تعبدون؟ وبما أنهم قد اتخذوا أصنامًا باسم الشمس والقمر والنجوم يعبدونها، فقالوا في الجواب: إننا نعبد هذه الأصنام، ونظل لها عاكفين طوال النهار. قال: هل تتلقون أي جواب منهم عندما تنادونهم لتعلموا أنهم قد استجابوا لدعائكم، وهل تظهر أي نتيجة لدعائكم نفعًا أو ضررًا؟ أي إذا كانت هذه الأصنام تمتلك قدرات إلهية فيجب أن تستجيب لدعائكم كما يستجيب الله تعالى لدعاء عباده، وأن تكون قادرة على نفع المؤمنين وتدمير الكافرين بها كما يحمي الله تعالى عباده من كل أذى ويهيئ لهم أسباب الرحمة والبركة. فهل تقدر أصنامكم على كل هذا؟ هل تستجيب لكم دعاء، أو تدفع

عنكم ضرًا، أو تجلب لكم نفعًا؟ وإذا كانت لا تتمتع بأي من هذه القدرات والصفات، فلمَ تعبدون ما لا يسمع ولا يجيب ولا ينفع ولا يضرّ؟

وهذا الدليل يبلغ من القوة بحيث يقول أحد أصحاب النبي ﷺ: لم أدخل في الإسلام إلا نتيجة هذا الدليل. وذلك أنني خرجت مرة في سفر وقد حملت معي صنمًا صغيرًا – بحسب عادة العرب – لينفعني عند الحاجة. وبينما أنا أمرّ ببرية عنّتْ لي حاجة، فوضعتُ أمتعتي هناك وقلت للصنم: سيدي، أرجوك أن تقوم بحماية متاعي ريثما أعود من عملي هذا. ولما رجعت وجدت ثعلبًا يبول على الصنم رافعًا رجله، فثرت غضبا وقلت: ما دام هذا الصنم لم يستطيع حماية نفسه من ثعلب يبول عليه، فكيف يحمي أمتعتي؟ فرميت الصنم بعيدًا وأسلمت حين عدتُ.

ويقول صحابي آخر: لقد آمنت بالتوحيد لأني خرجت ذات مرة في سفر مع رفاق لي، فصنعت صنمًا من العجين وأخذته معي. وتصادف أن نفد زادنا، و لم نجد شيئًا نأكله رغم البحث المضني. واشتد بنا الجوع، فاضطررنا لقطع صنمي المصنوع من العجين وصنعنا منه الخبز. وعندما شبعنا من الأكل ضحكتُ على نفسي وقلت: ما أشدّني غباء، إذ كنت أعتبر الشيء الذي قطعتُه وأكلتُه وهضمتُه إلـــهًا قاضيَ الحاجات! فأسلمتُ بعد عودتي فورًا.•

فإبراهيم عليه السلام قد نبّه هنا قومه إلى عجز الأصنام وقلّة حيلتها وقال: هل تنفعكم شيئًا أو تصيب أعداءكم بأذى؟ فقال قومه نادمين: كلا، لم نر لعبادتنا لهذه الأصنام أي نتيجة ولا فائدة إلا أننا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون، فعبدناها مثلهم.

• ورد في كتب الحديث: "في رواية مسلم: وكانوا يتحدثون، فيأخذون في أمر الجاهلية، فيضحكون ويتبسم ﷺ. ومن جملة ما يتحدثون به أنه قال واحد: ما نفع أحداً صنمُه مثل ما نفَعني. قالوا كيف هذا؟ قال: صنعتُه من الحيس، فجاء القحط، فكنتُ آكله يوماً فيوماً. وقال آخر: رأيت ثعلبين جاءا وصعدا فوق رأس صنم لي وبالا عليه، فقلت: أَرَبٌّ يبول الثعلبانُ برأسه؟ فجئتُك يا رسول الله وأسلمتُ، كذا في المرقاة." (تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي، محمد بن عبد الرحمن المباركفوري، كتاب الاستئذان والآداب عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في إنشادِ الشِّعر) (المترجم)

والحق أن جوابهم هذا يماثل طريفة كان الخليفة الأول ﷺ يحكيها لنا. وذلك أن كنّاسا وكنّاسة كانا يأتيان البلاطَ الملكي لتنظيفه، وكانا قد قاما بتربية الخنازير في بيتهما. فمات خنّوص من خنانيصهما. وحبُّ المرء للحيوانات التي يربّيها، سواء كانت خنازير أو غيرها، أمرٌ طبيعي. وكان الخنّوص بالنسبة للكنّاسَين كالفرس أو كأي حيوان آخر بالنسبة لنا. وفكرت الكنّاسة أثناء العمل في خنّوصها الميت، فأخذت تبكي مستندة إلى جدار القصر. فجاء أحد خدام البلاط ووجدها باكية، فظن أنه ربما وقع مكروه في بيت الملك، وفكّر في نفسه أن الناس إذا رأوه لا يبكي أساءوا به الظن وشكّوا في ولائه للملك، فأخذ يتباكى. ثم جاء أحد الحراس ووجدهما يبكيان، فظن أن حادثًا ما قد وقع في بيت الملك، وفكر أنه لو رآه أحد لا يبكي لشك في ولائه، فأخذ يتباكى. ثم جاء صغار الموظفين ثم كبارهم وبدأوا يبكون لبكاء الآخرين. ثم أتى رجال البلاط والوزراء وقالوا في أنفسهم: لا جرم أن القوم يبكون لحادث قد وقع اليوم في القصر ومن واجبنا نحن أن نكون على علم بما يحدث هنا، وإذا لم نبك فسوف يشكّ القوم في ولائنا، وبدأوا يتباكون على مقاعدهم واضعين المناديل على عيونهم. ثم حضر وزير كان أذكى من الآخرين فلم يبك، بل سأل أحد زملائه الجالس بجنبه: ما الذي حدث؟ قال: لا أدري، إنما وجدت الوزير الجالس بجانبي يبكي فبدأت أبكي. فقال: اسأله ما الذي حدث؟ فلما سأله قال: أنا لا أعلم شيئا إنما كان الوزير الجالس بجانبي يبكي فبدأت أنا أبكي. فلم يزل يسأل الواحد منهم صاحبه حتى سألوا الكنّاسة عن سبب بكائها، فقالت: إنما أبكي لأني قد تذكرت خنوصًا لي قد مات!

فكما أن كل رجال البلاط بكوا برؤية الكنّاسة الباكية بدون سبب، كذلك قال قوم إبراهيم: لقد وجدنا آباءنا يعبدون هذه الأصنام ويتوسلون إليها ويسجدون لها، فبدأنا نتوسل إليها ونخرّ أمامها ساجدين.

قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٦﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٧﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٧٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٩﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٨٠﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨٢﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٣﴾

شرح الكلمات:

الدين: الجزاء؛ المكافأة؛ الحساب؛ القضاء. (الأقرب)

التفسير: أما قول إبراهيم: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إلا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ فقد جاء فيه الخبر بصيغة المفرد مع أنه جمع، فقال ﴿فإنهم عدوٌّ لي﴾ بدل أن يقول "إنهم أعداء لي"، وذلك لأنهم في العربية يأتون بالخبر مفردا وإن كان المبتدأ جمعًا، فلا اعتراض على ذلك. ونظيره في القرآن الكريم قول الله تعالى لموسى وهارون في هذه السورة: ﴿فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، مع أن الظاهر يقتضي أن يقال "فقُولا إنّا رسولاَ ربِّ العالمين". وهذا الأسلوب شائع في اللغة العربية، فمثلا يقال "هذان رسولي ووكيلي" و"هؤلاء رسولي ووكيلي" (فتح البيان)، مع أن الظاهر يقتضي أن يقال "هذان رسولاي" و"هؤلاء رسلي".

وقد قال البعض عن قول إبراهيم: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إلا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾: لماذا سمى الأصنامَ عدوًّا له مع أنها جماد لا حيـــاة فيها؟ وقد أجاب المفسرون على ذلك بأن النسبة قد جاءت مقلوبة هنا. ومثاله في لغتنا: "الميزاب يجري"، مع أن الميزاب لا يجري، إنما الماء يجري في الميزاب، فقال إبراهيم إنهم عدوّ له، بينما يقصد أنه عدو لهم. وهذا ما فسّر به الفرّاء، حيث قال إن النسبة قد جاءت في هذه الجملة مقلوبة.

ولكنني أرى أن إبراهيم عليه السلام إنما اتخذ هذا الأسلوب تعريضا بعقيدة المعارضين،

حيث قال لهم: إنكم تظنون هذه الأصنام آلهة ولكنني لا أعبدها، فلا بد أن تصبح أعداءً لي إلا رب العالمين الذي أعبده، وسوف نرى الآن ما إذا كان ربي الذي هو رب العالمين ينصرني ويحميني، أم ستهلكني آلهتكم التي تعاديني. إذا كانت هذه الأوثان تملك أي قدرة، فلتهلكني الآن وتدمرني، ولكنها إذا لم تقدر على هلاكي، كان دليلا على أنها عاجزة ولا حول لها ولا قوة.

وبالفعل قد أكدت الأحداث أن رب العالمين نجّا إبراهيم ولم تستطع آلهة قومه أن تضرّه شيئًا.

كما نجح اليهود وهلك أعداؤهم – نتيجة لهذه النبوءة الإبراهيمية– حيث كانوا يؤمنون بإبراهيم عليه السلام.

كما أشار إبراهيم عليه السلام بقوله ﴿رب العالمين﴾ إلى أن الإله الذي أؤمن به إلهٌ حيٌّ قويٌّ، أما آلهتكم فلا حول لها ولا قوة. مما لا شك فيه أن كلمة ﴿ربّ العالمين﴾ تعني أن ربنا هو رب الناس ورب الحيوانات، ورب الهوام والحشرات، كما أنه رب العرب ورب الفرس ورب الهنود أيضًا، ولكن كلمة ﴿رب العالمين﴾ تشير إلى العوالم المختلفة نظرًا إلى العصور المختلفة أيضًا، وعليه فإن إبراهيم يعني أيضًا أن الإله الذي يدعو إليه إلهٌ حيّ، إذ كان ربًّا للذين كانوا في زمن آدم، وللذين كانوا في زمن نوح، وللذين هم في زمنه، وللذين سيأتون بعده أيضًا. فثبت أن مثل هذا الإله إلهٌ حيّ إذ لو لم يكن إلـــهًا حيّا لما كان ربًّا لأهل كل عصر. إذًا، فإن إبراهيم عليه السلام قد نبّه أيضًا بقوله ﴿رب العالمين﴾ أن ربي هو إله حيّ يمكن أن ينتفع منه أهل كل عصر كما انتفع منه أهل العصور الغابرة، ولكن آلهتكم لم تنفع أحدًا من قبل ولا تنفعكم أيضًا، فاجمعوا كل آلهتكم من أجل تدميري وادعوها بالبكاء والابتهال ثم انظروا هل يكون النصر حليفًا لربي الذي هو رب العالمين أم لآلهتكم. فكما أن الطفل الصغير حين يمر في الشارع وحيدا ويضايقه الأولاد الأشرار، ويريدون ضربه، فيصرخ فتسمع أمه صوته فتخرج من البيت مسرعة قلقة، كذلك يقول إبراهيم عليه السلام إنكم مهما عاديتموني ومهما حاولتم تدميري فمن المحال أن يخذلني ربي وتنتصر آلهتكم على الله الأحد. إن كبار الملوك والمفكّرين والزعماء أيضًا

يعتمدون في الدنيا على مساعدة الآخرين عند حلول المحن، وبالفعل يأتي بعض الناس محاولين إنقاذهم، فينجحون أحيانا ويفشلون أحيانا، ولكن المؤمن عندما يُبتلى بمحنة فإن الله الأحد بنفسه ينـــزل من السماء ويتصدى لمن يعتدي على عبده المؤمن. وهذه خير جزاء يمكن أن يناله أي إنسان. وهذا هو نفس الجزاء الذي ناله الرسول ﷺ وجماعته، وعيسى عليه السلام وجماعته، وموسى عليه السلام وجماعته، وإبراهيم عليه السلام وجماعته، حيث كان الإله الحي القوي معهم دائمًا، وكلما هاجمهم العدو نـــزل الله من السماء ووقف إلى جنبهم وأظهر لهم الآيات الكبرى. إن هذا الحب الإلهي شيء ثمين لدرجة أنه لو جاز للإنسان لتمنى أن يعاديه الناس أكثر لتثور له محبة الله أكثر. ولكن الإسلام ينهى عن مثل هذه الأمنية حيث قال الرسول ﷺ: "لا تتمنّوا لقاءَ العدو." (البخاري: كتاب التمني، باب كراهية تمنّي لقاء العدو).

علينا أن نتوقف هنا مليًا للتدبّر في معنى هذه الكلمة، فمن ذا الذي يتمنى أن يهاجمه العدو؟ كلا، لا أحد في الدنيا يتمنى أن يشن عليه عدوه الهجوم فيقاتله ويلقيه في المحنة ويهلكه. لكن الواقع أن المسلمين كانوا يستطيعون أن يتمنوا في بعض الأحيان أن يشن العدو عليهم الهجوم لينـــزل الله من السماء لنصرتهم، هذا هو الأمر الذي بسببه قال النبي ﷺ: أيها المسلمون، لا شك أن الله تعالى يقف بجنبكم كلما يهاجمكم العدو، وتجدون في ذلك من المتعة والسرور ما يجعلكم تتمنون لقاء العدو كلما توقف هجومه لكي ينـــزل الله إليكم مرة أخرى؛ ولكن هذه الأمنية صحيحة فيما يتعلق بالحب والعشق، ومنافية فيما يتعلق بحِكم الله ومشيئته، فلا تتمنوا ذلك كيلا تخالفوا أمر الله تعالى. أما إذا كان العدو هو البادئ بالهجوم فلن يخذلكم ربكم إن كنتم على صلة صادقة معه، لأن من سنته المستمرة أنه ينصر رسله ويُري آياته تأييدا للذين يؤمنون برسله. فإبراهيم عليه السلام يشير بقوله ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ إلى هذه السنّة الإلهية القديمة، ويوضح لقومه قائلا: إن آلهتكم التي تُمرِّغون أنوفكم أمامها ساجدين هي عدو لي، فليضرّوني بشيء إن كانت تملك أي قدرة إزاء ربي الذي هو إلهٌ حيّ وقويّ ورب العالمين. سترون أن آلهتكم ستفشل حتمًا وسوف ينصرني ربي الذي هو رب العالمين.

هذا، ويتضمن قوله ﴿رب العالمين﴾ نبوءة أن هذا الدين سيصبح دينًا عالميًا في نهاية المطاف، حيث يبعث الله ﷻ نبيًّا إلى الناس أجمعين ولن تبقى نفس منفوسة خارجة عن نطاق فيوضه.

ثم يقول إبراهيم عليه السلام: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾.. أي أن رب العالمين هو ذلك الإله الذي خلقني، فلا بد أن يحميني من الأخطار والحوادث ويوصلني إلى غايتي ويكتب لي النجاح في مهمتي، إذ كيف يمكن أن يخلقني ويبعثني لغاية عظيمة ثم ينسحب عن حمايتي ومواساتي، ويدَعني فريسة للحوادث والمحن؟ إن صفة "الخَلق" في ربي تقتضي أن يحالفني النجاح من عنده أيضًا، لأن الكائن الذي هو محتاج إلى غيره حتى من أجل وجوده لا يستطيع أن يهيئ بنفسه أسباب الرقي والتقدم لنفسه، بل يكون محتاجًا إلى خالقه في هذا المجال أيضًا. فمثلا إذا بنيتَ بيتًا فلن يكون له باب ولا شبّاك ولا نافذة ولا كُوّة إلا إذا وضعتها أنت بنفسك لأنه بيتك وأنت بانيه، كذلك ما دام اللهُ ربُّ العالمين هو الذي قد خلق الإنسان فلن يحقق الرقيّ ماديا أو روحانيا ما لم يهيئ له رب العالمين أسباب الرقي.

وقد أكد إبراهيم عليه السلام بهذه الكلمات أمرين، الأمر الأول أنه أنبأ قومه بانتصاره ورقيّه معربًا عن يقينه الكامل بأن ربّه لن يخذله أبدًا؛ فليخذلْه عمه وإخوته وأصدقاؤه وقومه إذا شاءوا، ولكن الله رب العالمين الذي عاش هو في كنفه وتربى في حضنه لن يخذله أبدًا، بل سيكتب له العز والنجاح والغلبة. والأمر الثاني هو أن إبراهيم عليه السلام قد حث هنا قومه على التفكير في غاية خلقهم، فلا يضيعوا أعمارهم سدًى. الواقع أنه برغم أن كل إنسان يدرك أنه لم يُخلق بنفسه، إلا أن قليلاً هم الذين يفكّرون في غاية خلقهم. إنهم يظلون منغمسين في متع الدنيا وزخرفها بحيث تنشأ في قلوبهم مئات الأسئلة الأخرى، ولكن السؤال الذي لا يتولد في قلوبهم هو: ما هي غاية خلقهم؟ لقد رأيتُ أن كثيرا من الناس يتساءلون: لماذا خُلقت الأزهار الجميلة الخلابة في غابات أو جبال يصعب وصول الإنسان إليها؟ وما الحاجة إلى خلق آلاف الأنواع من الديدان والحشرات التي تتولد في موسم الأمطار؟ وما الجدوى من أن يخلق الله تعالى في البحار الجُدْجُد وغيره من

الحيوانات الدميمة؟ ولماذا أنبت الله الأعشاب بهذه الكثرة؟ ولماذا خلق الله الحيّة والحريش وغيرهما من الزواحف. فهناك آلاف المخلوقات في البرّ والبحر والجو التي يسأل الناس عن غاية خلقها. وكما قلت يجد المرء منظرا خلابا للأزهار الجميلة على أعالي الجبال التي يصل إليها بصعوبة بالغة فيتساءل: ما الحكمة في خلق هذه الأزهار الرائعة الجمال في هذا المكان النائي؟ فهناك آلاف التساؤلات المماثلة التي تنشأ في القلوب، وكل إنسان يحاول الإجابة عليها بحسب عقله وفهمه، فيقول مثلا: يُصنع اليوم مِن سموم المخلوقات السامّة مثل الحيّة وغيرها أدوية كثيرة ذات مفعول سريع. أو يقول مثلا: لقد خُلقت هذه المناظر الخلابة في الأماكن النائية لكي لا يتمتع بجمالها إلا الذي يتكبّد العناء والمشقّة. إن هذه الأسئلة والأجوبة توضح بجلاء أن الإنسان يعترف بأن كل شيء في الدنيا قد خُلق لهدف وغاية، ومع ذلك لا يفكّر الإنسان أبدًا في غاية خلقه هو. إنه توّاق لمعرفة الحكمة وراء خلق الأشياء الأخرى، ولكنه لا يفكر أبدًا في غاية خلقه هو، وفيما إذا كان يحقق هذه الغاية أم لا، وما إذا كان عدم خلقه يمثّل أي نقصان في الدنيا. فهناك كثير من الناس الذين وجودهم أو عدمهم سواء. إنهم لا يعلمون غاية حياتهم، كما لا يسعون لتحقيقها. ولو أن الناس كلّهم فكّروا في هذا السؤال لتجنبوا الكسل والغفلة و لم يدَعوا أعمالهم ناقصة، بل سعوا لرقيّهم الروحاني باذلين كل تضحية.

ومن الواضح أنه ليس باستطاعة الجميع أن يكون مثل هتلر ونابليون وتيمورلنك، لأن مضمار الرقي المادي ضيق جدا؛ ولكن هناك مضمار متاح للجميع ليثبت فيه وجوده ويحرز الرقي كيفما شاء دون أن يلحق بأحد ضررًا أو يعيق له طريقًا، وهو مضمار التقرب إلى الله تعالى. ذلك لأن تقدُّم المرء فيه لا يضر غيره، كما أن كل إنسان يمكن أن يتقرب إلى الله تعالى أيًا كانت مهنته أو درجته بين الناس. فبوسع المِلك أن يتقرب إلى الله تعالى، وبوسع الأمير أن يتقرب إلى الله تعالى، وبوسع الفقير الذي لا حول له ولا قوة أن يتقرب إلى الله تعالى، ويمكن للخبّاز أن يتقرب إلى الله تعالى، ويمكن للغسّال أيضا أن يتقرب إلى الله ﷻ. يقال إن وجود ملِكَين في إقليم واحد مستحيلٌ، ولكن يمكن أن يوجد عشرة من أولياء

الله تعالى في إقليم واحد، بل في بيت واحد، بل في غرفة واحدة، بدون أن يتضرر أحد منهم شيئًا، بل إن سبيل الوصال إلى الله تعالى واسعة بحيث لا يمكن أن تضيق على السائرين فيها أبدًا. وكما أن النهر لا ينقصه شربةُ عصفور، كذلك هو حال التقرب إلى الله تعالى. فإنه كنـــز عظيم لا ينقص منه شيء أبدا. فقد نال نبينا ﷺ من حب الله تعالى نصيبًا أوفر بحيث لا نجد نظيره عند سائر الأنبياء، ومع ذلك بقي عند الله تعالى حب كثير ليوزعه على أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وغيرهم من الصحابة – رضوان الله عليهم – فنال كل واحد منهم حظًا وافرًا منه بقدر درجته.

فعلى الإنسان أن يفكر دائمًا في غاية خلقه. وإن غاية خلق الإنسان بحسب القرآن الكريم أن يكون محبوبا عند الله تعالى. وعندما يتبوّأ هذا المقام فلا ينمحي اسمه من سجلّ الله تعالى وإن انمحت الدنيا كلها! إنه يستطيع أن يكون مقربا عند الله تعالى وهو يعيش في أسمال بالية، فينال عنده تعالى من العزّ ما تتضاءل أمامه عزّة الدنيا كلية. لقد لفت إبراهيم عليه السلام أنظار قومه إلى هذه الحقيقة الأساسية ودعاهم إلى التدبر في غاية خلقهم والانتفاع بأسباب الهداية التي خلقها الله لهم. وإلا ستذهب حياتهم سدًى، فيكونون كالباحث عن حتفه بظلفه.

ثم يقول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾.. أي أن الله ربَّ العالمين هو الذي يطعمني ويسقيني، إذ لم أخلق أنا الحنطة ولا الماء ولا الملح ولا الفلفل ولا اللحم ولا الخضار وما إلى ذلك، إنما وُجدتْ هذه الأشياء كلها قبل ولادة أجدادي أيضا. الحق أن أقدم أُسرة باقية في العالم أيضًا لا ترقى إلى أكثر من مئة جيل، بينما وُجدت الحنطة والماء والخضار واللحم والملح والفلفل والغلال كلها قبل وجود هذه الأسر بكثير وكثير، فكيف يمكن للإنسان إذًا أن يدعي أنها ملكٌ له؟ إنما نأكل هذه الأشياء لأن الله سبحانه وتعالى سمح لنا بذلك، وإلا فليس بوسعنا أن نوجد أيًّا منها. خذوا مثلاً الماء، فإننا لو أمعنا النظر لوجدنا أن الماء الذي نشربه قد ادخره الله تعالى في طبقات الأرض، وقد ذكّرنا الله تعالى في القرآن الكريم بأنه لو ذهب بهذا الماء، فمن أين تأتون بماء مثله؟ وهذا حق وصدق تمامًا، إذ لا طاقة لنا على إيجاد الماء، بل إن

الله تعالى قد هيأ لنا بمحض فضله كل هذه الأشياء التي لا غنى لنا عنها. إننا نعاني كثيرًا إذا لم نجد الماء لبضع ساعات، ولكن المناطق التي يكون فيها الماء شحيحا يشرب أهلها شيئًا شبيهًا بالوحل لا يمكن أن يسمّيه أهل بلادنا ماءً. فمثلاً في بعض مناطق السند وبلوجستان• يشرب الناس ماء شبيهًا بالوحل ولا يستطيع أهل بلادنا شربه إلا في حالة الاضطرار الشديد. وباختصار ليس هناك شيء يؤكل أو يشرب إلا وقد أعدّه الله تعالى لنا، ولكن الله ﷻ خفيٌّ عن الأعين ويحسن إلى الناس من وراء الغيب، فلا يشعرون بمننه التي لا تعد ولا تحصى. ترضع الأم ولدها فيظن أن أمه هي التي تحسن إليه حيث ترضعه من دمها، مع أن عاطفة التضحية هذه لم تخلقها الأم في نفسها بنفسها، بل إن الله ﷻ هو الذي قد خلقها فيها حتى قبل ولادته. فترى الفتيات يصنعن الدمى ويلعبن بها، وما هي إلا الأمومة وعاطفة تربية الأولاد، وإن الله ﷻ هو الذي قد خلق هذه العاطفة فيهن سواءً عبّرن عنها بوعي أو بغير وعي. على أية حال، إن الله ﷻ هو الذي قد خلق في المرأة الرغبة في الأولاد و لم تخلقها هي بنفسها، إذ قد أُودعتْ فيها حتى قبل ولادتها هي. فما دامت عاطفة الأمومة موجودة في الأم حتى قبل ولادتها فثبت أنه لا دخل لها في وجودها فيها. وهنا ينشأ السؤال: إذا كانت المرأة لم تخلق عاطفة الأمومة فيها بنفسها فمن ذا الذي خلقها فيها؟ لا بد أن يكون خالقها غير المرأة، وبالتالي لا بد من الاعتراف أن الذي خلق جميع المخلوقات هو الذي قد خلق هذه العاطفة في الأم. ومع ذلك نرى أن الولد يحب أُمّه ولا يحب الله تعالى، وذلك لأنه لا يرى اللهَ تعالى. إنه لم ير ذلك المشهد عندما كانت ملائكة الله ﷻ تودع حبَّ الأولاد في فطرة أمه وهي لا تزال جنينًا في بطن أمها، وإنما رأى أن أُمَّه ترضعه بثديها، ورغم أنها تتعرض للفاقة والجوع والضعف والهزال بحيث يختفي اللحم من جسمها ولا يبقى منها إلا هيكلها العظمي، ومع ذلك تضع في فمه ثديها الجاف الذي لم يبق فيه قطرة من اللبن. فبما

• إقليمان في باكستان. (المترجم)

أنه لا يرى اللهَ الذي خلق هذه العاطفة في أمه فلا يحبّه بل يحبّ أمّه التي يراها ترضعه من ثديها. كذلك يأكل الإنسان الخبز، فيشكر من أعطاه الحنطة التي صنع منها الخبز، أو يشكر مَن أعطاه على العمل أجرة اشترى بها الحنطة، أو يشكر أُمَّه أو زوجته التي صنعت له الخبز؛ ولكنه لا يشكر من خلق له الحنطة والملح والماء؛ وذلك لأنه يرى من أعطاه الحنطة، أو الأجرة، أو يرى المرأةَ التي خبزت له الخبز في الأتون في اليوم الحار أو أعدت له الفطور جالسة في البرد القارس في فناء البيت، بينما كان هو ملتفّا باللحاف و لم يرد الخروج من فراشه؛ فلأنه يرى هؤلاء فتتولد في قلبه مشاعر الشكر لهم، ولكنه لا يرى المُنعِم الحقيقي وراء هذا الإنعام، فلا يدرك أن المنعِم الحقيقي هو غير هؤلاء.

هنالك طريفة شهيرة في بلادنا – والله أعلم ما إذا كانت حقيقية أم من نسج الخيال – وهي أنه في أيام حكم الإنجليز على بلادنا كان الناس يذهبون إليهم بالهدايا المغلّفة في السلال لكسب ودّهم. وقد أصبح هذا العمل محظورا فيما بعد بحسب القانون، ولكن الشاطرين من الموظفين ورؤساء القوم ظلوا يقدّمون الهدايا كلما قابلوا المسؤولين الإنجليز. ويقال أن حاكم محافظة ذهب مع أحد الجباة لمقابلة مسؤول إنجليزي، وأحضر معه هدية، والجميع يعرف أن المحافظ أعلى منصبًا من جابٍ حيث يعمل الأخير تحت سلطة الأول الذي تخضع له مناطق واسعة. وبالمصادفة كان عند المسؤول الإنجليزي وقت ضيق للقاء، فبدلاً أن يدعو كل واحد منهما على انفراد دعا الاثنين معًا. فهمَّ المحافظ حملَ سلّة الهدية، ولكن الجابي سبقه وحملها قائلاً: سيدي، لماذا ترهق نفسك بحملها وأنا حاضر؟ ثم حمل السلة ودخل بها ووضعها أمام المسؤول الإنجليزي بدون أن يخبره أنها من قِبل المحافظ. وظن الإنجليزي أن الجابي هو الذي قد أتى بالهدية، فجلس متوجهًا إلى الجابي ومديرًا ظهره إلى المحافظ، وأخذ يسأله عن أحوال المنطقة، وظل المحافظ يحترق كمدًا طول الوقت ولكن بدون جدوى. واستمر اللقاء بين المسؤول الإنجليزي والجابي ساعتين لم يتوجه فيهما بأي سؤال إلى المحافظ. وعندما خرجا من عنده

صبّ المحافظ جام غضبه على صاحبه، فقال له الجابي: سيدي، ما كان لائقًا بي أن أدَعك تحمل سلّة الهدية.

فترى أن الهدية كانت في الواقع من قبل المحافظ، ولكن الجابي هو الذي قدّمها للمسؤول الإنجليزي، فخصّه بلطفه ووده. هذه هي حال الإنسان، فإنما تأتيه العطايا من عند الله ﷻ، ولكن أباه وأمه وابنه وأخته وأخاه هم الذين يقدمونها إليه، فيظنّ أنها منهم، مع أن يد الله تعالى هي التي تكون وراء هذه الهدايا كلها.

فتذكيرًا بالمحسن الحقيقي أمرَنا الإسلام أن نقول بسم الله قبل الأكل أو الشرب، لأن قولنا هذا يعني أنه برغم أن الأم أو الزوجة أو الأخ هو الذي يضع الطعام أمام المرء، ولكن الحقّ أن الله تعالى هو الذي بعث الطعام إليه. وعندما يذكَّر المرء بهذا الأمر مرارًا وتكرارًا ويدرك أن الله تعالى هو معطي هذه النعم كلها وهو الذي يطعمنا ويسقينا ويكسونا، فيميل قلبه إلى الله تعالى شيئًا فشيئًا وتتولد محبّة الله في قلبه. هذا هو الأمر الذي يبيّنه إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾.. أي أن الله تعالى هو المحسن الحقيقي الذي يطعمنا ويسقينا؛ وإذا كان تعالى هو المحسن الحقيقي فمن الغباء الشديد أن يُعرض الإنسان عن محسنه الحقيقي ويخضع أمام الناس الذين قد جعلهم الله تعالى مجرد واسطة. لأن هذا التصرف يعني أن الإنسان ينظر إلى الغصن ولا ينظر إلى الجذع، ومثل هذا الإنسان يسدّ بيده طريق رقيّه الروحاني ويجلب عليه سخط الله ﷻ.

ثم قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ حيث نسب المرض إلى نفسه والشفاء إلى الله تعالى. ذلك لأنه تعالى قد خلق الأشياء كلها لنفع الإنسان، ولكنه إذا أساء استعمالها مرض أو تضرر، ثم حين تدارك الإنسان خطأه وعالجه شُفي؛ ولذلك يُعزى المرض إلى الإنسان والشفاء إلى الله ﷻ.

والحق أننا لو تدبرنا كل ما يصيب الإنسان من مشاكل ومصائب لتبين لنا أن مصدر كل مصيبة هو سوء استعماله لنِعم الله تعالى، ولو أنه أحسن استخدامها استطاع تجنّب المصائب والبلايا. لماذا يمرض الإنسان؟ إنما يمرض لأنه يتناول ما يضرّ جهاز هضمه، أو أنه يأكل ما ليس فيه ضرر مباشر، إلا أنه يتجاوز في استعماله حد

الاعتدال أو يسيء استعماله فيمرض. خذوا الشمام مثلا، فإن هذه الفاكهة في حدّ ذاتها نعمة من الله تعالى ولكن المرء لو تجاوز حد الاعتدال في تناولها أصبحت هذه النعمة نقمة عليه وأصابته بالمرض. أو خذوا ثمرة المانجو مثلا، فإنها نعمة ربانية، ولكن إذا تناولها المرء أكثر من حد الاعتدال أضرّته. فجميع نعم الله تعالى تنفع الإنسان إذا استعملها إلى حد الاعتدال، وتصيبه بالمرض إذا تجاوز هذا الحد. على سبيل المثال إن الباذنجان وقثاء الحمار تأثيرهما حارّ، وتناوُلهما إلى حدّ معيّن نعمة، ولكن إذا تناولهما المرء أكثر من حد الاعتدال سبّب له الأول البواسير والثاني الإسهال. وتناوُل قصب السكر إلى حدّ الاعتدال مفيد جدًا، ولكن تجاوز هذا الحدّ المعتدل يسبب بعض أمراض البول. فثبت أن قصب السكر لا يسبب المرض، وإنما تجاوز الحد في استعماله هو الذي يسبب المرض. بل الحق أن السكر ضروري جدا لجسم الإنسان. فبرغم أن الجلوكوز ليس إلا السكر، إلا أن الأطباء إذا حقنوا به مريضًا أوشك نبضه على التوقف من شدة الضعف عاد نبضه قويًا ثانية. كان الناس في الماضي يعالجون بسبب جهلهم مرضى السكري بتفريغ السكر من أجسامهم تماما مع أنه عنصر ضروري جدا للجسم، فكان قلب المريض يتوقف بسبب نقصان السكر فيموت. ولذلك ينصح الأطباء في هذه الأيام أن حقنة الأنسولين إذا أثرت في قلب المريض تأثيرا سلبيا فيجب أن يعطى حقنة الجلوكوز فورا فيعود نشيطًا.

فثبت بذلك أن كل الأمراض التي تصيب الإنسان إنما سببها هو سوء استعماله لنعم الله تعالى، ولو أنه أحسن استعمالها لما أصابته بالمرض بل نفعته. لقد خلق الله الحديد لفائدة الإنسان وإذا أحسن استعماله نفعه نفعًا كبيرًا، حيث يصنع من الحديد أنواع من الأجهزة والماكينات النافعة، ولكن إذا أسيء استخدام الحديد أصبح شيئا ضارًا جدًا. أتذكر أنه في أيام طفولتي جاء بعض النجّارين من سيالكوت لبناء بيوتنا، وكنت أشاهدهم وهم يعملون. وعندما كانوا يعملون بالقَدّوم كنت أتمنى أن أعمل به مثلهم. كانوا يعملون بهذه الأداة كسبًا للرزق، ولكني كنت أظن أنهم يستعملونه من أجل المتعة فقط، فتمنيت أن أتمتع أنا أيضًا

باستعماله مثلهم. فحاولت مرارا أن أجرّب استعمال هذه الأداة، ولكنهم كانوا يمنعونني قائلين: لا تلمسها وإلا ستجرح نفسك. وكنت أظن أنهم إنما يمنعونني ليحرموني من متعة استعماله! وأخيرًا سنحت لي الفرصة يومًا حيث ذهبوا إلى المسجد لأداء الصلاة، تاركين أجهزتهم على الأرض، فحملت القدّوم وحاولت استعمالها. ولكن ما إن ضربت بها الضربة الأولى حتى أصابت يدي ولا يزال أثر الجرح بيدي.

فترى أن الله تعالى لم يخلق القدّوم لتجرح الإنسان، ولكن سوء استعمالها جرح يدي. وبالمثل فإن كل ما خلق الله تعالى من شيء إنما خلقه لنفع الإنسان، ولكن سوء استعماله إياه يؤدي إلى ضرره. مثلا يحمل الواحد على الآخر بالسيف أو الخنجر أثناء القتال فيقتله، لكن السؤال الذي يفرض نفسه: هل خلق الله الحديد ليشجّ به الإنسان رأس الآخرين؟ كلا، بل لو صنع من الحديد السكاكين والمدى لقشر الخضار وقطعها بدلاً من أن يشجّ به رؤوس الناس، أو صنع به الفؤوس لقطع الأشجار أو صنع به أدوات الحراسة وغيرها من الأدوات والماكينات، لكان الحديد نافعًا جدًّا للناس، ولكنه لو استعمل الحديد لضرب الآخرين لشجّ رؤوسهم.

فثبت أنه ليس في الدنيا شيء يمكن أن يضرّ الإنسان إن أحسن استعماله. إن ما يضره هو سوء استعماله لهذه النعم، وليس النعم نفسها. إن سمّ الحيات والعقارب فتّاكٌ جدا، ولكن أطباء الهوميوباثي (العلاج بالمثل) يستعملونه اليوم في علاج أمراض عديدة، وقد وجدوه ناجعًا جدا. فمثلا إن المريض الذي تتشقق أظافره إذا أُعطي جرعة من سمّ الحيّة على شكل دواء الهوميوباثي، تماثلَ للشفاء فورًا. والزرنيخ سمٌّ زعافٌ يقتل كثيرًا من الناس، ولكن علينا أن نرى كم من الناس يموتون به وكم يحيون. ولو قمنا بالدراسة لانكشف علينا أن ألفًا أو ألفين من الناس يموتون بتناول الزرنيخ سنويًا، أما الذين يُشفَون به فيبلغ عددهم مئات الآلاف. فعندما لا ينجع في مريض الملاريا دواء يعطى جرعة قليلة من الزرنيخ، فيتماثل للشفاء. كما أنه مفيد في معالجة أمراض عديدة أخرى. وبالمثل إن جوز القيء سمّ قاتلٌ يموت العديد بتناوله، ولكنه ينقذ حياة مئات الآلاف أيضا. كما أن الأفيون

شيء مدمّر جدًا، ولكن نفعه أكبر من ضرره. وكان المسيح الموعود عليه السلام يقول: لقد كتب الأطباء أن نصف الأدوية يُستعمل فيها الأفيون، وأن إحصاء منافعه الطبية أمر متعذر (جريدة "الفضل" قاديان عدد ١٩ يوليو/تموز ١٩٢٩م ص ٢). عندما يصاب الإنسان بالاكتئاب والقلق ويفقد النوم تمامًا وتنهكه الأوجاع والآلام حتى يتمنى الانتحار، يحقن بالمورفين فيشفى على الفور بإذن الله تعالى.

إذًا، فليس في الدنيا شيء هو ضار في حد ذاته، وإنما الضرر يكمن في سوء استعماله من قبل الإنسان وذلك نتيجة تقصيره وكسله، ومن أجل ذلك نسب إبراهيم عليه السلام هنا المرض إلى نفسه والشفاء إلى الله سبحانه وتعالى. وعلى النقيض إن المسلمين في بلادنا يدّعون الإيمان بالله تعالى ولكنهم إذا فشلوا في أمر يقولون: لقد بذلنا كل ما بوسعنا ولكن الله أفشلنا، وهكذا يعزون الخير إلى أنفسهم والشر إلى الله تعالى؛ وهي إساءة كبيرة تُرتكب في بلادنا في حق الله سبحانه وتعالى. مع أن المؤمن الصادق كلما أتى عمله بنتيجة مرضية قال الحمد لله.. أي أن الله تعالى هو الذي وفّقه في هذا الأمر؛ وإذا فشل في أمر قال "إنا لله وإنا إليه راجعون".. أي لم أفشل إلا بسبب تقصيري وخطئي، لأن الله سبحانه وتعالى كان قد هيأ لي كل سبب للرحمة والبركة. والحق أنما ينال البركة من عند الله تعالى من يعزو العيب إلى نفسه والحُسنَ إليه تعالى، لأن الله تعالى يقول عندها: إن عبدي نسب العيب إلى نفسه والحُسن إليّ، فمن واجبي الآن أن أكتب له النجاح التام لكي ينسب إليّ المحاسن كلها. ولكن الإنسان إذا لم يسلك هذا المسلك وعزا العيب إلى الله تعالى، تخلى الله عنه و لم ينصره.

ثم قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾. لقد ذكر هنا اثنتين من صفات الله تعالى: المحيي والمميت. ومن الأدلة على إحيائه تعالى مئاتُ الآلاف من المواليد الذين يولدون كل يوم في الدنيا وفي ظروف خارجة عن نطاق قدرة الإنسان، ثم يكبرون في ظروف غير مواتية، ولولا أن هناك تصرّفًا مباشرًا من ذات عليا لما تربّوا في تلك الظروف وما كبروا أبدا. الواقع أن ولد الحيوان يصبح قادرا على سد حاجاته بنفسه خلال بضعة أيام فقط، وفراخ العصافير تتمكن من الطيران وعمرها أسبوع أو أكثر قليلا، وفراخ الدجاج تقدر على سدّ حاجاتها وعمرها ثلاثة

أو أربعة أسابيع فقط، ومواليد الأنعام تقفز بعد الولادة فورا؛ ولكن ولد الإنسان يظلّ بحاجة لأن يُحمل في الحضن حتى سبعة بل تسعة أشهر، وفي بعض الحالات لا يستطيع أن يحبو على رجليه حتى بعد أن يبلغ تسعة أشهر. وحينما يولد يكون غذاؤه الذي يتربى عليه موجودا في ثدي أمه. ثم تخرج أسنانه التي يمضغ بها طعامه بعد سنتين أو ثلاث عادة، وإن كانت هناك استثناءات حيث تأخذ أسنان بعض الأولاد في الخروج بعد ستة أو سبعة أشهر. وفي كل هذه الفترة تخدم الأم ولدها بعناء شديد. وتحمُّل هذه المعاناة الشديدة محال لو لم يودع الله فطرتها عاطفة حبّ الولد وتربيته. ولا تظنن أن كونها أُمًّا هو وحده يولّد هذه المحبّة الغريبة فيها، ذلك لأن عواطفها لا خيار لها فيها، ويُنسب إلى المرء من الأمر ما يكون خياريًا، أما ما لا يكون خياريًا فلا يُنسب إليه، بل يُنسب إلى ذات أخرى حتمًا؛ وتلك الذات هي الله ﷻ الذي أودع قلب الأم حبّ الأولاد وزوّدها بقوة تمكّنها من أن تلدهم وتربيهم. وبالفعل تقوم الأم بتربية أولادها سنوات عديدة؛ فأوّلاً تحمل الولد في بطنها تسعة أشهر، ثم تحمله في حضنها سنتين، وهذا يعني أن ولدها يكون همّها الوحيد لحوالي سنتين ونصف. وبمجرد أن تفرغ من تربية هذا الولد تحمل بولد آخر في معظم الحالات، وهكذا تقضي المرأة أفضل فترة من حياتها في تربية أولادها. فثبت أن عاطفة المحبّة التي توجد في كل امرأة تجاه الأولاد إنما هي من خلق الله ﷻ، وإلا فمن المستحيل أن يقاسي أحد هذه الآلام الشديدة بناء على العقل فقط. الحق أنه لولا خلق الله تعالى هذه العواطف في قلب الأم لتوقف الإنسان، بناءً على فلسفته وعقله، عن إنجاب الأولاد بالتدريج أو أهمل تربيتهم.

ثم إن صفة الله "المميت" أيضا تتجلى لنا كل يوم حيث يموت مئات الناس في المدن الكبيرة، فتجد الناس يمشون مع الجنازة في شارع أو آخر، أما المدن الصغيرة فيموت واحد من أهلها كل أسبوع تقريبا، أما القرى الصغيرة فيموت فيها اثنان أو ثلاثة كل سنة. فنرى مشهد الموت هذا بكثرة في العالم.

إذًا، فإن الناس يشاهدون صفتي الله "المحيي" و"المميت" بحيث لا يسع أحدا إنكارهما. إن الحياة تسبب للناس فرحة، ويسبب الموت لهم حزنًا حتى تتولد الرحمة

في قلب المرء برؤية جثّة العدو أيضًا – إلا أن يكون قاسي القلب – وينسى العداوة التي قد مرّ عليها عشرات السنين، فينبعث من قلبه الدعاء لعدوّه أو تتولد مشاعر الرحمة والمواساة تجاه أقاربه وأعزته؛ إذ يدرك أنه سيأتي عليه أيضًا هذا اليوم كما أتى على عدوّه. ولكن لا تسبب أيٌّ من هاتين المناسبتين فرحةً أو همًّا لله ﷻ الذي هو عالم الغيب، ذلك لأنه عندما يولد طفل في بيت يظنّ أبواه وأقاربه أنه قد طلع على الدنيا قمر جديد، وفُتح عليها باب جديد من الرحمة، مع أن هذه الروح الجديدة الآتية إلى الدنيا قد تسبب كثيرًا من المصائب والآلام لأهلها. إن أقاربه يفرحون عند ولادته، ولكن ملائكة الله في السماء يحزنون. إذًا، فالولادة تحمل رسالة واحدة أي الفرحة لأهل الدنيا، وإن تفاوتت درجة فرحتهم من طفل إلى آخر، ولكن ملائكة السماء يبكون معربين عن أسفهم وألمهم عند بعض الولادات التي تستدعي ذلك، ويفرحون عند بعض الولادات كثيرًا وإن لم يفرح بها أهل الدنيا.

ونفس الحال بالنسبة للموت، فعندما يموت إنسان في الدنيا يحزن أقاربه وأصدقاؤه قلّوا أو كثروا. فمثلا عندما يموت أحد الصعاليك فلا تفرح زوجته ولا أولاده قائلين مثلاً: نعم ما حصل! إذ كان زوجي أو أبي صعلوكا فتّاكا قد عاث في الأرض الفساد. كلا، بل يطلقون الصراخ عاليا كما يصرخ أبناء أي إنسان بارّ محسن عند وفاته، ويرى أهل الصعلوك موته خسارة كبيرة للدنيا تمامًا كما يرى أولاد أي مصلح عظيم موت أبيهم خسارة عظيمة للعالم، أو أكثر من ذلك.

كان سيدنا المسيح الموعود عليه السلام يحكي لنا طريفة بأنه لما توفي المهراجا "رنجيت سنغ" كان هناك بكاء عام بين الناس إذ قام المهراجا بتوطيد الأمن والسلام في فترة حكمه قاضيًا على الفوضى المنتشرة في البلاد. فبكاه الناس جميعا بما فيهم الهندوس والمسلمون أيضا، علاوة على السيخ الذين كانوا من قومه وأهل ملّته، خشية اندلاع الفتن في البلاد ثانية. فبينما كان الجميع يصرخون ويذرفون الدموع، كلٌّ

حسب علاقته بالراجا، مرَّ أحد الكنّاسين قريبا من لاهور* ووجد الجميعَ في مأتم وبكاء، فسأل بعضَهم: ما الذي حدث اليوم، ولماذا يبكي الجميع؟ فأجابه: ألم تعلم؟ لقد مات المهراجا رنجيت سنغ. فقال: آه، فإنهم يبكون لموت المهراجا! ولكن ما الغرابة في موت الراجا رنجيت سنغ ما دام أبي لم ينج من الموت؟

فترى أن المهراجا قد أرسى دعائم الأمن والسلام في البلاد ومع ذلك لم يحزن الكنّاس على موته إذ لم يكن قريبا من قلبه كما كان أبوه عزيزًا عليه، ولم يعرف المنافع السياسية في حياة المهراجا، فوجد وفاة أبيه أشد وطئًا عليه من وفاة الأول.

وقد جاء الدنيا عديد من الجبابرة الآخرين كأمثال "هولاكو خان"، فهل تظن أن زوجته أو أولاده أو أقاربه كانوا أقلَّ صدمة بوفاته من زوجات وأولاد الملوك الآخرين عند وفاتهم؟ لا جرم أنه قد أصاب زوجةَ وأولاد "هولاكو خان" عند وفاته من الحزن ما أصاب زوجةَ وأولاد الملك الفارسي "أنو شيروان" عند وفاته. ومع أن الأخير كان شهيرا بعدله وإنصافه، بينما كان "هولاكو خان" مشهورًا بظلمه واستبداده، إلا أن صدمة أزواجهما وأولادهما كانت متساوية، أو ربما كان موت "هولاكو خان" أشد وطأة على زوجته وأولاده لكونهم أشدّ عاطفة.

ولكن لا يكون الأمر هكذا في السماء. فبرغم أن جميع الأهل والأقارب – قلّوا أو كثروا – يفرحون في الدنيا بولادة إنسان، إلا أن أهل السماء يفرحون بولادة إنسان ويحزنون بولادة إنسان آخر. وكذلك الحال بالنسبة للموت أيضًا؛ فمع أن أهل الأرض يحزنون بموت كل إنسان، قلّوا أو كثروا، إلا أن أهل السماء، يحزنون بموت إنسان ويفرحون بموت إنسان آخر. ثم إن مشاعر الملائكة أيضًا تختلف نسبيًا عند موت الناس، ويكون فرحهم أو حزنهم مركّبًا في بعض الأحيان، بمعنى أنهم لا يحزنون فقط عند موت إنسان، أو لا يفرحون فقط عند موت إنسان آخر، بل تكون مشاعرهم مزيجًا من الحزن والفرحة أحيانًا؛ فمثلاً عندما يموت شخص ظالم مستبد قد دمّر سلام أهل الأرض يفرح ملائكة السماء لأن عباد الله تعالى نجوا من

* كانت لاهور عاصمة المهراجا رنجيت سنغ. (المترجم)

جور هذا الظالم، ولكنهم يحزنون أيضا لأن شخصًا مات بدون أن ينال رضا ربّه. كذلك عندما يموت بعض عباد الله الصالحين الأبرار ويقع في الأرض صراخ وعويل، فإن ملائكة الله في السماء يفرحون مرتقبين صحبته. ذلك لأن الموت ما هو إلا باب للخروج من هذه الدنيا إلى الآخرة. وكما أن إنسانًا مصلحًا أو محسنًا إذا ما دخل بلدة ابتهج أهلها بمجيئه، وإذا غادرهم حزنوا بفراقه، في حين أن أهل المدينة الأخرى التي سيدخل فيها يفرحون بقدومه، كذلك عندما يُتوفى أحد عباد الله الصالحين الأخيار، الذي يكون أفضل من الملائكة ورعًا وتقوًى وتقربًا إلى الله تعالى، بل يكون معلِّما للملائكة – كما هو بيّن من قصة آدم عليه السلام – فإن أهل الدنيا يتألمون بأن إنسانًا بارًّا قد فارقهم إلى الآخرة بعد أن أنهى أيام حياته بينهم، ولكن الملائكة يفرحون بقدومه إلى عالمهم.

فيمكنك أن تقدّر – مثلاً – القيامة التي قامت بالمدينة عند وفاة نبينا ﷺ، ولكن يمكنك أيضًا أن تقدر مدى فرحة أهل الجنّة في تلك المناسبة، إذ كانوا يسمعون من الله وملائكته أن عبدًا من عباده المختارين قد ولد في الدنيا، وأنه يتبوّأ أسمى المقامات الروحانية، ولا بد أنهم كانوا يتمنون بلفهةٍ لقاءه بعد سماع هذا الكلام ويفرحون بتصور ذلك اليوم العظيم الذي سيلتحق بهم فيه ذلك الإنسان المبارك، وتتحقق آمالهم القديمة.

ولكن هذا إنما يحدث في السماء فقط، أما الأرض فأهلها يحزنون بموت كل إنسان.

وكما أننا نرى أن الله تعالى يتجلى بهاتين الصفتين في الدنيا، كذلك يكون هناك أناس كثيرون يكونون بمثابة الولادة أو الحياة للعالم. فالآباء والأمهات – مثلاً – يتسببون في ولادة الأجيال الجديدة، والأطباء يعالجون المرضى، ورجال الدفاع المدني ينقذون الغرقى، ويطفئون الحرائق، ويساعدون منكوبي الحوادث والكوارث؛ وما هؤلاء إلا نموذجًا ومظهرًا لصفة الله "المحيـــي". وعلى النقيض يوجد في الدنيا أناس لا ينشرون فيها إلا الهلاك والدمار، ويتسببون في القتل والسطو والفساد، وإنْ هم إلا مظاهر لصفة الله "المميت".

بيد أن كل مقلّد لصفة من صفات الله تعالى لا يكون بالضرورة مقبولا عنده تعالى. لا شك أن الله مميت، ولكن هذا لا يعنى أن يقتل المرء أحدًا بغير حق ثم يقول: إنه مقرّب إلى الله ﷻ لأنه قد كشف بقتله صفة الله "المميت"، فإن مثل هذا الادعاء باطل تماما. ذلك لأنه إذا قتل أحدًا بالحق وفقًا للشروط التي تخوّل له قتله فيمكن أن يكون من المقرّبين عند الله تعالى، ولكنه إذا قتله بدون توفّر تلك الشروط فلن يكون مقرّبا عند الله تعالى. وبالمثل إن الولادة مظهر لصفة الله "المحيي"، ولكن المرء إذا تسبب في ولادة ولد غير شرعي، فلا يجوز له الادعاء بأنه مقرّب عند الله ﷻ بحجّة أنه قد كشف صفة الله "المحيي". إنما يُعَدّ المرء مظهرا لصفة الله "المحيي" أو "المميت" إذا عمل بهما بحسب القوانين والشروط التي وضعها الله تعالى لذلك. فإذا أحيا بحسب القانون الإلهي صار بدون شك مظهرا لصفة الله المحيي، وإذا أمات وفق القانون الإلهي عُدَّ مقرّبا عند الله تعالى، أما بدون ذلك فلا. فمثلا إن كلا الفريقين يقوم في القتال بعمل واحد مماثل في الظاهر، فيضرب المؤمنُ الكافرَ، ويضرب الكافرُ المؤمنَ، ولكن كلما سقط مؤمن بسيف كافر اهتز له عرش الرحمن ولعن الملائكة الكافر، ولكن كلما سقط كافر بسيف مؤمن، فرح الملائكة وأنزلوا رحمة الله على المؤمن. فبرغم أن الفعل واحد، والمقام واحد، وآلة القتل واحدة، إلا أن أحدهما يتلقى الرحمة والبركة من الله تعالى، بينما يبوء الآخر بلعنة الله تعالى وملامته.

إذًا، فكون المرء مميتًا أو محييًا ليس بأمر حسن أو سيئ في حد ذاته، وإنما يكون إحياؤه عملاً حسنا إذا تم بحسب القانون الإلهي، وتكون إماتته عملا حسنا ما دامت ضمن أمر الله تعالى. أما إذا تم الإحياء أو الإماتة بـــخلاف قوانين الله تعالى كان عملاً سيئا.

فالإسلام يعلّمنا أن نسعى لتكون أعمالنا خاضعة لمشيئة الله على الدوام، وأن نأخذ العبرة من حقيقة أن بعض الناس يُعَدّون ظالمين رغم اتصافهم بصفة الإحياء، ويكونون غاشمين رغم اتصافهم بصفة الإماتة. ولكن المؤمن لا يكون هكذا، بل كلما صار محييًا نال الرحمة، وكلما صار مميتًا نال الرحمة أيضا، وإذا قتَل نال الثواب

وإذا أنجب نال الثواب أيضًا. فعليكم ألا ترتكبوا أي فعل يحرمكم من رضوان الله تعالى.

نرى في هذا العصر أن دولاً كبيرة قلقة نتيجة اختراع القنبلة الذرية، وتحاول جاهدةً لاختراع ما يحميها من دمارها. وعلى النقيض نجد أن الله ﷻ أيضًا يلقي "قنبلته الذرية" دائمًا حيث يهلك ملايين البشر كل سنة نتيجة الموت الطبيعي، بل يصل هذا العدد أحيانًا ما بين عشرة ملايين إلى خمسة عشر مليونًا لدى انتشار مختلف الأوبئة في الدنيا. ولكننا نرى أن هذا العدد الهائل من الأموات لا يصيب الناس بالهلع والذعر، وليس سبب ذلك إلا لأن الله ﷻ إذا كان يُهلك الملايين بقنبلته الذرية أي بالموت الطبيعي من جهة، فإنه تعالى يخلق الملايين أيضًا من جهة أخرى. إذا كان الله تعالى قادرًا على الإفناء فإنه قادر على الإحياء أيضًا، ولأجل ذلك لا نرى عند الناس أمارات الهلع عندما يموت عشرات الملايين كل سنة نتيجة الموت الطبيعي، لأنهم يعلمون أن ربّهم محيٍ ومميت أيضا. ولكن القنبلة الذرية وما شابهها من المخترعات قد جعلت الموت في قبضة البشر الذين يعرفون الإفناء دون الإحياء، ومن أجل ذلك نجد بين الناس هذا الفزع الذي بثّته هذه المخترعات؛ بينما نرى الناس يموتون كل يوم ولكن لا يصابون بالهلع. عندما يموت إنسان يندبه أقاربه بضعة أيام ثم يهدأون؛ وبعد انقضاء فترة قصيرة نجد أهله، الذين كانوا يصرخون ويبكون على موته من قبل، يقيمون حفلة عرسٍ مثلاً تنطلق منها أصوات الغناء والموسيقى. إذًا فإن القلق الذي يصاب به أهل بيت على موت أعزّ قريب لهم يكون مؤقتًا يزول بعد أيام، ولكن الهلع الذي قد أصاب الناس بسبب القنبلة الذرية كبير جدا، وليس سبب ذلك إلا أنها تنشر الموت والدمار فقط وليس هناك معه تدبير للإحياء. ولو كان مع القنبلة الذرية سبيل للإحياء لما أصاب الناس الذعر إلى هذا الحدّ. هنالك فرقة هندوسية يعتقد أهلها أن الإله "براهما" يخلق، والإله "شِوْ" يُهلك. ويُقال أنه لا يوجد في الهند كلها إلا معبد واحد للإله "براهما"، بينما يوجد للإله "شِو" معابد كثيرة. ويحكى أن أحد الراجات من هذه الفرقة الهندوسية لم يكن عنده أولاد، فاستشار وزراءه، فقالوا له: عليك أن تعبد الإله "براهما" فسيهب

لك ابنًا. فبدأ يعبده ناذرًا أنه لو وهب له ابنًا فسيُرغم رعاياه كلهم على عبادته، وسوف يُكرِههم على ترك عبادة الإله "شِوْ". وبعد فترة قصيرة رُزق الراجا ابنًا، فأمر رعاياه أن يتركوا عبادة الإله "شِوْ" ويعبدوا الإله "براهما" فقط. فجاءه أحد الراجات الآخرين الأذكياء وقال له: لقد أنجزَ لك الإله "براهما" ما كان بوسعه ووهب لك ابنًا، فالأفضل أن تعبد الآن الإله "شِـــو" حتى لا يسخط عليك ويُهلِك ابنك. فرضي الراجا بقوله وأمر الناس بعبادة الإله "شِوْ" ليحيا ابنه. فأخذ الناس يعبدون "شِوْ" ونسوا "براهما". ولما كبر الابن سمع من الناس بأن الإله "براهما" خلقه، ولكن أباه ترك عبادته وأخذ يعبد الإله "شِـــو". وكان الابن يتحلّى بالشجاعة الأخلاقية، فقال في نفسه: عليّ أن أقدّر المعروف الذي صنعه إليّ محسني حيث أنعم عليّ بالحياة، فقرر أنه لن يعبد إلا "براهما". وعندما علم الأب بقرار الابن خاف أن يسخط عليه الإله "شِوْ" فيُهلك ابنه، فنهى ابنه عن عبادة "براهما"، فقال له الابن: لن أكون ناكرًا لمعروف الإله "براهما". واستمر الجدال بينهما وازداد الاثنان عنادًا، لأن المرء إذا نُهي عن شيء ازداد تمسّكًا به. وفي النهاية دعا الأبُ الإلهَ "شِو" بأن يُهلك ابنه! فقبض "شِو" روح ابنه. فسخط الإله "براهما" على ذلك وأحيا الابن ثانية. فعاد "شِو" وأماته ثانية، فأعاده "براهما" للحياة مرة أخرى، وهكذا بدأت الحرب بين الإلهين ولا تزال مستمرة إلى اليوم.

هذه عقيدة الهندوس، ولكن الحقيقة أن الله ﷻ يملك القوتين: قوة الإحياء وقوة الإفناء. وفي هذا العصر زوّد الله تعالى البشر بقوة الإفناء بدون أن تكون عندهم قوة الإحياء، وهذا هو السبب وراء قلق الناس، فتجد كل الدولَ التي ليس بحوزتها القنبلة الذرية تعيش في خوف وفزع، وتسمع من جميع أنحاء العالم أصواتا تنادي بعدم استعمال القنبلة الذرية في الحرب. ولكني أرى أن القنبلة الذرية تحذر الناس أنهم حين يملكون القوة تصبح مدمّرة للغاية، حيث يسيئون استعمالها فيُزهقون بها حياة الملايين، وليس هذا فحسب، بل يسعون ليجعلوها أكثر فتكًا لينشروا الدمار على أوسع نطاق ويُزهقوا بها الأرواح بأكبر عدد وأقلّ وقت. مع أنهم لو أحسنوا استعمال الطاقة الذرية لنفعت الإنسانية نفعًا كبيرًا.

وليس لهذا القلق والذعر إلا علاج واحد، ألا وهو أن يعود الناس إلى ربّهم الذي يحيي ويميت، والذي يملك قوة الإحياء وقوة الإفناء. وهذا ما يؤكده إبراهيم عليه السلام هنا ويقول: ﴿وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ .. أي ربنا محي ومميت أيضا، فعلينا أن نكون مع الذي يُفني الملايين ومع ذلك لا يصاب الناس بالهلع والذعر. فعندما يموت في بيت شخصٌ يبكيه أهله لبضعة أيام ثم يهدأون، وبعد فترة وجيزة يولد في نفس البيت مولود جديد فيُهنئ بعضهم بعضا. ولكن كل هذا في يد الله تعالى، لذا فعلينا أن نتوجّه إليه ونتوكل عليه فقط، أما قوى الإنسان وقدراته فهي ضعيفة لا اعتبار لها. لن تستطيع القنبلة الذرية فعل شيء ما دام الله تعالى يريد بقاء الناس، لأنه تعالى قادر على إفناء هؤلاء الذين ينشرون الدمار، ويمكن أن يهيئ من الأسباب ما يُبطل مفعول القنبلة الذرية وغيرها من المخترعات المدمّرة. فعلى المرء أن يهتمّ برفع مستوى روحانيته مستغنيا عن هذه الأمور كلها، ويعبد الله وحده الذي إذا كان مميتًا فهو محيٍ أيضًا.. أي أنه لو كان سيميتنا من ناحية فإنه سيحيينا ثانية، وهكذا لن يأتي بعد الموت إلا الخير. إن فترة الموت فترة عابرة إذ ليس للإنسان إلا الحياة فقط في نهاية المطاف.

ثم يقول إبراهيم عليه السلام ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾.. أي أن ربي هو ذلك الذي أرجو أن يستر تقصيراتي الناتجة عن الضعف البشري، ويشملني بفضله ويكتب لي النجاح والفلاح عند ظهور النتائج.

علمًا أن لفظ "غفَر" الذي ورد هنا لا يُستعمل لغفران الذنوب فقط، بل يعني تغطية التقصيرات وستر العيوب أيضًا، يقال: غفَر الشيءَ غفرًا: ستَره، وغَفر المتاع في الوعاء: أدخله وستَره، وغفَر الله ذنبه: غطّى عليه وعفا عنه. (الأقرب).

كما أن لفظ "الخطيئة" أعمّ من الإثم، لأن الإثم يُطلق على الجرم الذي يُرتكب عمدا، بينما تُطلق الخطيئة على الجرم المتعمد وأيضًا على التقصيرات البشرية غير المتعمدة. (الأقرب)

أما لفظ "اليوم" فلا يفيد معناه المعروف فقط، بل يعني الوقت والزمن مطلقًا أيضًا، حيث ورد لفظ "اليوم" في القرآن الكريم بمعنى ألف سنة وكذلك خمسين

ألف سنة (السجدة: ٦ والمعارج: ٥). كما استعملته العرب بمعنى الزمن والوقت مطلقا كقول الشاعر:

يوماه يوم ندًى ويوم طِعانِ (لسان العرب وتاج العروس)

يقول الشاعر في مدح صاحبه بأن حياته فترتان: فترة سخاء وفترة حرب. كذلك ورد في الحديث: "تلك أيام الهرج" (أبو داود: كتاب الفتن، باب النهي عن السعي في الفتنة).. أي تلك أوان الفتنة. وقد ورد لفظ اليوم في الآية قيد التفسير أيضا بمعنى الوقت والزمن.

أما لفظ "الدين" فله أيضا معان عديدة سوى الديانة، مثل الطاعة، الجزاء والمكافأة، الفصل والقضاء، المِلّة، الحساب، السلطان والغلبة، الحُكم والمُلك، التدبير، العادة، طريق العبادة، الصلاح، الحال، الشأن، والسيرة. (الأقرب واللسان)

إذًا، فلفظ ﴿يوم الدين﴾ لا يعني فقط يوم القيامة حتى نحصر دعاء إبراهيم عليه السلام في الجزاء الذي يتلقاه الناس في ذلك اليوم، بل الدين يعني أيضًا الجزاء والنتيجة بحسب العمل كما بينت آنفًا، وعليه فإن إبراهيم عليه السلام يقول في هذا الدعاء: إنني آمل أن يستر ربي تقصيراتي ويشملني برحمته ويكتب لي النجاح في مقصدي حينما يُظهر نتائج أعمالي.

إن الذين لا علم لهم بالأمور الروحانية يظنون أن المرء إنما يطلب الغفران إذا دنّس حياته بأنواع الذنوب والآثام، ولكن هذا الظنّ دليل على جهلهم باللغة العربية وبالروحانية. الواقع أن كل إنسان بحاجة لأن يهبه الله سبحانه وتعالى نصيبا من نوره ويقوّيه بقوّته ويعطيه من علمه. فكما أن عين الإنسان لا تعمل بدون ضوء الشمس، وأذنه لا تسمع أي صوت بدون واسطة الهواء، كذلك فكل إنسان – ولو كان نبيًّا – محتاج إلى نصرة الله وعونه، ولذلك قد علّمنا الإسلام أن من واجب كل واحد منا أن يدعو ربّه في كل ركعة من صلواته الخمس ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.. أي ربنا إننا نريد أن نعبدك وحدك، ولكنا لا نستطيع ذلك بجهودنا وإرادتنا وحدها، وإنما سننجح فيه إذا كان عونك حليفًا لجهودنا. إذا اجتمع هذان الأمران سيتم ما ننشده، أما بدون ذلك فلن تكلل جهودنا بالنجاح. وبهذا المعنى

نفسه يقول إبراهيم عليه السلام إنني أسعى جاهدًا ليل نهار لنشر وحدانية الله تعالى بقدرِ وُسعي، ولكن جهودي لن تكلل بالنجاح بدون فضل الله وتأييده، ولذلك به أستعين وآمل أن يبارك في جهودي المتواضعة عند ظهور نتائجها ويسدّ بفضله كل خلل يوجد فيها جراء الضعف البشري ويكتب لي النجاح في مهمتي.

ومن معاني الدين الغلبة أيضًا، وعليه فقول إبراهيم ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ يعني أني آمل أن يتغاضى الله ﷻ عن تقصيراتي البشرية إبّان رقي هذه الجماعة الروحانية التي تقام بيدي، وأن يهيئ الأسباب لاستمرار عملية الدعوة والتربية، فتصل سفينة هذا الدين إلى بر الأمان سالمة من أمواج الفتن والحوادث المتلاطمة.

الواقع أن نبوءة غلبة الجماعات الإلهية إذا كانت تحمل في طياتها بشارة عظيمة، فإنها تنطوي على نوع من الإنذار أيضًا. ذلك لأن آلافًا من الناس يدخلون في تلك الجماعة أيام غلبتها، وبما أن هؤلاء القادمين الجُدد ليسوا ممن تحمَّل التعذيب في سبيل الدين، وليسوا ممن يفقه تعاليم دينه إلى حد كبير، فيصابون بأنواع الفساد. لا شك أنهم يصدّقون بأفواههم جميع العقائد، ولكن عَملهم لا يتفق مع دعواهم، ويعتبرون أنفسهم في غنى عما فرض عليهم دينهم من واجبات وقيود، وهكذا تنمو بذرة انحطاط الأمة. لقد رأى إبراهيم عليه السلام بفراسته الثاقبة هذه البذرة، فبدأ يدعو الله ﷻ لاستئصالها، كما أعرب عن أمله أن يكون الله معه دائمًا، وأن يغضّ الطرف عن هذا الضعف البشري فيه، حيث لا يقدر إنسان واحد على تربية آلاف الناس. ولكن الله ﷻ سيهيئ من عنده الأسباب لتربية هؤلاء القادمين الجدد ليرفعوا بكل إخلاص وفداء لواءَ الإسلام عاليًا على الدوام.

رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾
وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱجْعَلْنِى مِن وَرَثَةِ

جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٦﴾ وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تُخۡزِنِي يَوۡمَ يُبۡعَثُونَ ﴿٨٨﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٩﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴿٩٠﴾

شرح الكلمات:

حُكمًا: الحُكم بالشيء: أن تقضي بأنه كذا أو ليس بكذا، سواء ألزمتَ ذلك غيرَك أو لم تُلزمه.... والحكمةُ إصابةُ الحق بالعلم وبالعقل.... والحُكم أعمُّ من الحكمة، فكلُّ حكمة حُكمٌ، وليس كل حُكم حكمة. (المفردات)

والحكمة: العدلُ؛ العلم؛ الحلم؛ النبوة؛ قيل: ما يمنع من الجهل؛ وقيل: كلُّ كلام موافق الحق؛ وقيل: وضعُ الشيء في موضعه، وصواب الأمر وسَداده. (الأقرب)

لسان صدق: يُعبَّر عن كل فعلٍ فاضلٍ ظاهرًا وباطنًا بالصدق، فيضاف إليه ذلك الفعل الذي يوصف به.... (أما قول إبراهيم عليه السلام): ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ﴾ فإن ذلك سؤال أن يجعله الله تعالى صالحًا بحيث إذا أثنى عليه مَن بعده لم يكن ذلك الثناء كذبًا. (المفردات)

ولسان الصدق: الذِّكر الحسَن. (الأقرب)

سليم: السلامة التعرّي من الآفات الظاهرة والباطنة (المفردات). فالقلب السليم: البريء من كل آفة وفساد.

التفسير: كان إبراهيم عليه السلام قد عقد على الله سبحانه وتعالى آمالاً كبيرة، فرأى أن من واجبه أن يُنيب إليه سبحانه وتعالى ويدعوه لتحقيق رغبته ويوفقه لتبليغ رسالته على أفضل وجه، فدعا الله سبحانه وتعالى وقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾. والحُكم في الأصل - كما قال الإمام الراغب - هو المنع لإصلاح، ومنه سُمّيت اللجام حَكمةَ الدابة لأنها تمنعها. والحُكمُ بالشيء أن تقضي بأنه كذا أو ليس بكذا، سواء ألزمتَ غيرَك أو لم تُلزمه (المفردات). بيد أن الحكم لا يعني الفصل والقضاء فقط، بل

فيه دلالة على أن وراء هذا القضاء سببا معقولاً، ولأجل ذلك اشُتق منه لفظ الحِكمة التي تعني الفلسفة. إذًا، فالحكم لا يعني تنفيذ الأمر بالقوة والجبر فقط، بل يتضمن معنى إضافيا وهو أن وراء هذا القرار غاية هامة وأن العمل به سينفع الإنسان نفسه، وأن هذا القرار ليس صادرًا من أجل إظهار السلطة والقوة فحسب، دونما تروّ وتفكير.

ولما كانت الغاية الأساسية لبعثة إبراهيم عليه السلام نشر وحدانية الله سبحانه وتعالى فما كان لينجح في تحقيق تلك الغاية ما لم يكن كل حكم من أحكامه حكيمًا ينفذ إلى أعماق القلوب، ولذلك دعا ربه بأن يعطيه تعليما مليئًا بالحكمة ليقبله الناس ببشاشة وانشراح، وليسهّل له الطريق لنشر الهدى.

لقد ذكر المفسرون معاني مختلفة للحكم هنا منها: النبوة والرسالة؛ العلم والفهم؛ المعرفة بالله وبحدوده وأحكامه؛ والقدرة على الفصل بين الناس بالحق (القرطبي وروح المعاني). ولم يذكروا هذه المعاني المختلفة إلا لأنهم لم يراعوا السياق، بل ذكر كل واحد منهم ما خطر بباله من المعاني.

الواقع أن القرآن الكريم قد استعمل لفظ الحُكم بمعان شتى، فحينًا ورد فيه الحكم بمعنى الحكومة والغلبة كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾(الجاثية:١٧)، وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِنْ دُونِ اللهِ﴾(آل عمران:٨٠)، وحينًا ورد بمعنى الفراسة النافذة في أمور القضاء، كقول الله سبحانه وتعالى عن يوسف عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾(يوسف:٢٣)، وتارة بمعنى القرار، كقوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾(المائدة:٥١)، وكقوله تعالى: ﴿أَلا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾(الأنعام:٦٣)، وتارة أخرى بمعنى أحكام الله وتعاليم دينه، كقوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللهِ﴾(المائدة:٤٤)، وتارة بمعنى النبوة، كقول موسى عليه السلام: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾(الشعراء:٢٢).

والسياق هنا يبين أنه كانت هناك فكرة واحدة مستولية على قلب إبراهيم وعقله، وهي أن تتحقق غاية بعثته على خير ما يرام، ولا يقع في البناء الروحاني الذي بعثه الله تعالى لرفع قواعده شرخٌ يؤدي إلى زعزعته. وحيث إن تحقيق هذه الغاية مستحيل بدون عون الله ﷻ، فدعا إبراهيم عليه السلام ربه قائلا رب هب لي من عندك الغلبة، وأعطِني الفراسة لاتخاذ القرار الصحيح في القضايا الدينية، ووفِّقْني لتنفيذ الأحكام التي تسارع الفطرة السليمة لقبولها تلقائيًا.. أي فَلْيتّبع الناس أحكامك ولكن ليس بقوة العصا بل نتيجة اعتراف عقولهم وفطرتهم بعظمتها وفضلها.

ثم قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾. واللافت للنظر هنا أن هذا الدعاء قد خرج من فم نبي مختار كانت نجاته وقربه عند الله ﷻ أمرًا مؤكدًا. لو أن شخصًا لم تكن نجاته وقربه بالأمر اليقين قام بهذا الدعاء لقلنا إنه قد فعل ذلك لنجاته وقربه، إذ لم يكن متأكدًا من ذلك. ولكن من المحال أن نتصور أن نجاة أنبياء الله ﷻ ليست بأمر يقين، لأنه إذا لم تكن نجاتهم وقربهم بالأمر اليقين فمن المحال أن تكون نجاة أحد مضمونة. الحق أن رسل الله وأنبياءه يكونون من الناجين قبل دعواهم أيضًا، لأنهم إذا لم يكونوا هم الناجين فكيف يمكن أن يُبعثوا لإنقاذ الآخرين. فكونهم مبعوثين من عند الله تعالى لإنقاذ الآخرين دليل على كونهم من الناجين من قبل. فإذا كان الأمر كذلك، وإذا كان إبراهيم واحدًا من رسل الله ﷻ، فالسؤال الذي يطرح نفسه هو: كيف يمكن لشخص بُعث هاديًا للناس وأُمروا باتّباعه إذا أردوا النجاة؛ أن يدعو الله تعالى: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾؟ هل دعاؤه هذا يعني أنه لم يكن من الصالحين- معاذ الله - أم أن له معنى آخر؟

فليكن معلومًا أن مدلول كل كلمة يتغير بتغير السياق. خذوا مثلاً لفظ القامة، فإن قامة الإنسان التي تُعَدّ متوسطة في بلد تُعَدّ قصيرة في بلد آخر. فإن سكان النرويج أطول قامة من أهل إنجلترا وغيرها من البلدان، فذات مرة جاءت راهبتان نرويجيتان إلى الهند للسياحة، وكانتا أطول من الأناس المتوسطي القامة عندنا بحوالي قدم. ومن الواضح أن النرويجيين لم ينتقوهما من بين جميع النرويجيات من أجل

طولهما ليتأثر أهل الهند بقامتهما، بل الواقع أن النرويجيين كلهم طوال القامة. فثبت من هنا أن معيار القامة يتغير من بلد إلى بلد، فإن الذي يبلغ طوله خمسة أقدام ونصف يُعتبر في بلادنا من متوسطي القامة، ولكن الشخص بهذا الطول سيُعتبر طويلاً في النيبال، ويُعتبر قزمًا في النرويج! ونفس الحال بالنسبة للون أيضًا، فإن الذي يكون لونه فاتحًا بعض الشيء يُعَدّ في بلادنا أبيض اللون، ولكن أهل إنجلترا سيعدّونه أسود اللون، ولكنه لو ذهب إلى أفريقيا سيُعَدّ من البيض؛ بل إن الذي نعتبره أسمر اللون عندنا سيُعَدّ عند الأفارقة أيضًا من البيض. فمثلا لم يكن المولوي عبد الرحيم نير – أحد دعاتنا في غرب إفريقيا – أبيض اللون بل كان حنطيّ اللون، ولكنه لما وفد إلى إفريقيا اعتبره الأفارقة أبيض، حيث كانوا يقولون: لقد تنبّأ بعض صلحائنا بأن بلادنا سوف تزدهر كثيرًا عندما يأتيها داعية أبيض اللون. فكما أن مدلول اللون أو القامة يتغير من بلد إلى آخر، كذلك يتغير معنى كلمة "الصالح" بتغير السياق. فمثلاً يقول الله ﷻ: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾(النساء:٧٠). فهنا اعتُبر الصلاح أدنى المقامات الروحانية المذكورة هنا، بينما سمى الله ﷻ نوحًا ولوطًا صالحين خلال الحديث عن زوجتيهما حيث قال: ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ﴾(التحريم:١١)، مع أن كل واحد منهما نبي، والنبوة أفضل من الصلاح. كما قال تعالى عن إسحاق ويعقوب: ﴿وَكُلاًّ جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾(الأنبياء:٧٣)، مع أنهما من الأنبياء. وقال ﷻ في سياق البشارة بولادة يحيى عليه السلام بأنه يكون ﴿نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾(آل عمران:٤٠). وكذلك قال الله ﷻ عن المسيح: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾(آل عمران:٤٧)، مع أنه عليه السلام كان نبيًّا. وقد ثبت من ذلك أن لفظ "الصالح" له مدلولات شتى، فعندما يدعو شخص عادي ربه قائلا: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ فالمراد اجعَلْني من أهل الصلاح، وعندما يقوم أحد من الصلحاء بهذا الدعاء فالمراد أن يبوّئه درجة الشهداء، وعندما يدعو أحد الشهداء بهذا الدعاء فالمراد أن يجعله من الصّدّيقين، وعندما يقوم أحد الصّدّيقين بهذا الدعاء فالمراد أن يجعله

الله من كبار الصديقين أو يجعله مع الأنبياء، وعندما يدعو به أحد الأنبياء فالمراد أن يُلحقه بالأنبياء الذين هم أعلى منه درجة. وهكذا يختلف معنى الصلاح من شخص إلى آخر.

ومثاله الآخر أن الله تعالى يقول في القرآن الكريم لبعض الناس: ﴿لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾(الحجرات:١٥)، بينما يقول ﷻ في موضع آخر عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(البقرة:١٣٢). وهذا يعني أنه ﷻ اعتبر الإسلام في الآية الأولى خطوة أولى إلى الإيمان، بينما اعتبره في الآية الثانية منتهى الإيمان والمعرفة الروحانية.

وبالمثل نعلم أن الناس كلهم عباد الله ﷻ، ولكننا نرى أنه تعالى قد سمى النبي ﷺ في القرآن الكريم ﴿عَبْدُ اللهِ﴾ (الجن:٢٠)، و"عبد الله" هو أفضلُ أسمائه ﷺ عند الصوفية (اصطلاحات الصوفية للقاشاني ص ٤٥). فترى أن كل إنسان – مؤمنًا كان أو كافرًا – يسمى عبد الله لأنه تعالى قد خلق البشر كلهم، ولكن هذه الكلمة حين وردت في حق النبي ﷺ صار لها مدلول مختلف عن مدلولها العام.. أي أنه ﷺ هو العبد الوحيد الذي بلغ في عبودية الله ﷻ درجة الكمال.

وبالمثل إن لكلمة "الصلاح" مدلولات مختلفة، فمن الصلاح ما هو دون الصّدّيقية والشهادة، ومن الصلاح ما يدعو من أجله الأنبياء أيضًا، إذ يدركون أن لا نهاية لمدارج قرب الله ﷻ، ومهما تقرب الإنسان من ربه فلا يمكنه القول إنه قد بلغ الغاية من قربه ﷻ، ولذلك يدعو الأنبياء أيضًا أن يكتب الله لهم المزيد من الرقي، ويهب لهم معيّة القوم الذين هم أكثر منهم معرفة به وقُربا منه. فإنك ترى أن النبي ﷺ لما لقي الأنبياء ليلة المعراج لم يجدهم جميعًا في سماء واحدة، بل وجد بعضهم في السماء الأولى، وبعضهم في الثانية، وبعضهم في الثالثة، وبعضهم في الرابعة، وبعضهم في الخامسة، وبعضهم في السادسة، وبعضهم في السابعة. فبما أن ثمة تفاوتًا كبيرًا بين مدارج الأنبياء، فعندما يدعو أحدهم: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ فلا يعني ذلك أنه ينال الصلاح الذي هو دون الشهادة أيضًا، بل المراد أنه يريد اللحاق بالذين هم أعلى منه درجة. وبما أن مدارج قرب الله ﷻ غير محدودة، وبما أن المرء

إذا بلغ درجة من قربه ﷻ رغب في الوصول إلى الأعلى منها، وإذا بلغها تمنى بلوغ التالية لها، فلا يبرح يدعو: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾، ولا يمكن أن يأتي عليه وقت يستغني فيه عن هذا الدعاء.

فالحق أن إبراهيم عليه السلام قد علّمنا بهذا الدعاء درسًا عظيمًا، ألا وهو أن المرء مهما بلغ من الرقي فعليه ألا يظن أنه قد بلغ منتهاه، لأنه يأخذ في الانحطاط بمجرد أن تنشأ هذه الفكرة في قلبه. الواقع أن أكبر سبب وراء انحطاط الأمم ودمارها أن أفرادها يظنون أنهم قد بلغوا منتهى الرقي، وكلما أصيبوا بهذه الوسوسة وقعوا فريسة للانحطاط. لقد جعل الله ﷻ هذا الكون متحركًا بحيث إن كل ذرة منه تتحرك، بعضها حركةً دائرية، وبعضها حركةً أمامية، والقلب الذي جعله الله ﷻ مركز حياة الإنسان أيضًا يتحرك كل حين بدون انقطاع، ولو توقف عن الحركة مات الإنسان فورًا. وهذه هي حال الإيمان أيضًا، ولذلك قد ضرب النبي ﷺ مثال قلب الإنسان حين تحدث عن زيادة الإيمان ونقصه، فقال: ألا إن في جسد الإنسان مُضغة إذا صَلُحَت صَلُحَ الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله (البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه). ونفس المشهد نراه في العالم المادي أيضًا، حيث نجد مرض القلب أشدّ فتكًا من أي مرض آخر، فإذا أصيب به المرء لم يعجبه الأكل والشرب، وكان في قلق وحزن واكتئاب دائمًا، فأصبحت حياته أسوأ من الموت. كذلك إذا أُصيب قلب المرء بمرض روحاني فَقَدَ القوة المميزة بين الخير والشر، واستمر في التردي حتى يُصبح أسوأ حالاً من الدواب. فعلى المرء ألا يطمئن بما هو عليه أبدًا، بل يجب أن يطمح ويسعى دائمًا للوصول إلى الدرجة الأعلى فالأعلى.

وباختصار إن هذا الدعاء الذي سجله القرآن الكريم على لسان إبراهيم عليه السلام لا يعني أنه كان يشك في نجاته، وإنما هو تذكير للمؤمنين بأن لا يقتنعوا بأي مرحلة خلال سفرهم الروحاني أبدًا، ولا يظنوا أنهم في مأمن من السقوط من ذلك المقام العالي. ولولا هذا الدعاء من إبراهيم عليه السلام لظن الناس أنهم في غنى عن مثل هذا الدعاء. شأننا في هذا الدعاء شأن الأنبياء، فبرغم أنهم يبلغون أسمى درجات قرب الله ﷻ، حيث يقضون كل لحظة من حياتهم في عبادة الله ﷻ، ويظلون نشوانين

في حُب الله وعشقه ليلاً ونهارًا، وقيامًا وقعودًا، ويقظة ورقودًا، ويجري ذكر الله على ألسنتهم كل حين، وتشتغل كل ذرة من كيانهم وكل لحظة من حياتهم في إعلاء كلمته، ومع ذلك كله يأمرهم الله تعالى بأداء الصلاة؛ وليس سبب ذلك إلا لأنهم إذا لم يصلّوا لم يُصلّ أتباعهم أيضًا الذين يرون أُسوتهم فيتأسون بها قدر الإمكان، فلأجل ذلك لم يُبعث في الدنيا نبي قط قد أعفاه الله تعالى من العبادة، بل كل نبي عبد الله تعالى كغيره من البشر برغم أنه يقضي كل لحظة من حياته في عبادة الله ﷻ في الواقع. خُذ النبي ﷺ مثلاً، فإنه لم يصلّ الصلوات الخمس فحسب، بل قضى كل لحظة من حياته في عبادة الله تعالى حتى أمر الله ﷻ أن يعلن بين الناس: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام:١٦٣).. أي لا تظنوا أني أصلّي الصلوات الخمس فقط، بل الواقع أن عبادتي وتضحياتي، وكل حركة وسكون في حياتي إنما هي لله رب العالمين، إذ لا تأتي عليّ لحظة أتغافل فيها عن ذكر الله وحبه، بل إن موتي أيضًا عبادة. تروي عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ لما تُوفّي كان على لسانه الكلمات التالية: "اللهم الرفيقَ الأعلى" (البخاري: كتاب المغازي، باب آخر ما تكلّم به النبي ﷺ).. أي أُريد الذهاب إلى رفيقي الجالس على العرش. فثبت أن النبي ﷺ إنما أدى الصلوات من أجل هدايتنا وتربيتنا، إذ كان كل حركة وسكون من حياته صلاة وعبادة، ومع ذلك لم يقل كما يقول المتصوفون الزائفون: لقد بلغنا درجة من قرب الله ﷻ بحيث لم نعد الآن بحاجة إلى الصوم والصلاة.

فذات مرة تقدم إلي أحد المتصوفين بعد أن فرغت من صلاة الجمعة وقال لي: أُريد أن أسألك سؤالاً. قلت: تفضّل. قال: إذا وصل الراكب إلى شاطئ النهر فهل يبقى في القارب أم ينـــزل منه؟ وما إن وجّه إلي السؤال حتى فهّمني الله تعالى قصده الحقيقي، وذلك أن عامة المتصوفين في هذه الأيام مخدوعون حيث يقولون إن الصلاة والصوم والحج والزكاة وغيرها من الأحكام إنما هي مطايا تُوصلنا إلى أعتاب ربنا الحبيب، وإذا وصل المرء باب حبيبه ولم ينـــزل عنده بل ظلّ على راحلته، فلا بد أن يُعَدّ تصرفه هذا إساءة كبيرة إلى حبيبه، وبالمثل مَن حظي بقرب

الله ﷻ فلا تبقَ له حاجة إلى الصلاة والصوم وغيرهما من الأحكام إذ قد وصل إلى باب الله ﷻ. لقد كشف الله عليّ هذا الأمر عندما وجه إليَّ ذلك المتصوف سؤاله، فقلت له: إذا كان للنهر الذي يُسافر فيه الراكب شاطئ، فعليه أن ينـــزل من القارب إذا بلغ الشاطئ، ولكن إذا كان النهر بلا شواطئ فعليه أن يتذكر أنه بمجرد أن ينـــزل من القارب يغرق. فأخبِرْني الآن عن النهر الذي تتحدث عنه، أمحدود هو أم غير محدود؟ قال: بل هو غير محدود. قلت: فإن الراكب إذا نـــزل من القارب في هذا النهر غرق حتمًا، فالخير له أن يظل في القارب.

إذًا، فالإله الذي نُسافر إليه غير محدود. لا شك أن حياتنا في الدنيا سنوات معدودة، ولكن الله ﷻ قد وعدنا أن هناك حياة بعد هذه الدنيا لا نهاية لها؛ ومن أجل ذلك نُؤمن بدوام نِعم الجنة وعدم انقطاعها. فما دمنا نسبح في نهر غير محدود، وما دمنا نصبو إلى المزيد من قرب الله الذي هو أزلي وأبدي، فكيف يصح أن نتوقف مطمئنين عند مقام واحد؟ لو توقفنا لهلكنا يقينًا.

فبرغم هذه الحقيقة الواضحة، يخوض الناس نقاشات لا طائل منها ويقولون: كيف يمكن أن يدعو نبيٌّ ربّه قائلا: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾، بدلاً من أن يتذكروا هذه الحكمة القرآنية، فيسرعوا الخطى في رحلتهم إلى الله ﷻ، ويسعوا للفوز بمرضاة الله ﷻ من خلال التضحية، والإيثار، وخدمة الخلق، وسمو الأخلاق، والأسوة الحسنة، ومساعدة الفقراء، وخدمة القرآن وإشاعة الإسلام. إنهم لا يدرون أن جميع الصلحاء لا يتبوؤون درجة واحدة، فإن المكانة التي وصلها الرسول ﷺ لم يصلها أبو هريرة، والدرجة التي حازها أبو هريرة لا يحوزها المسلمون في هذا العصر، ولذلك فإن قوله تعالى: ﴿وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ تنبيه لنا لكي نواظب على الدعاء بأن نكون في معية الصالحين. فإذا حظينا بمعية صالح، فعلينا أن نتمنى اللحاق بصالح آخر هو أرفع درجة من الأول، ثم الذين يلونه، ثم الذين يلونه، وهلم جرّا؛ ويجب أن تشتد بنا هذه الرغبة دائمًا حتى نصل إلى أقدام النبي ﷺ الذي هو أسمى وأعلى وأرفع درجة من الصالحين أجمعين. وعندما نتأمل حياة النبي ﷺ نجدها مصبَّغة بنفس الصبغة، حيث كان يسرع الخطى دائمًا لنيل مراتب لا نهاية لها في

قرب الله ﷻ. إن الشباب في هذه الأيام يُصلّون بضعة أيام، فيظنون أنهم قد بلغوا أقصى درجة في قرب الله ﷻ، وهذا يعني أنهم يستهينون بالله تعالى ويعتبرونه شيئًا بسيطًا، فيظنون أنهم قد ظفروا به، مع أن البارئ تعالى عظيم جدًا بحيث يستحيل علينا القول حتى عن كبار الأنبياء الذين قد بلغوا الدرجات العلى في قرب الله ﷻ إنهم قد بلغوا الغاية في قربه، بل الحق أنهم كلما ازدادوا قربًا منه ﷻ وجدوا قدرته وقوته تعالى أكبر من ذي قبل، فيقرّون أنه لا تزال أمامهم درجات لا نهاية لها من قربه تعالى. فقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ كان رغم كبر سنه يطيل القيام في الصلاة متضرعًا خاشعًا باكيًا أمام الله ﷻ حتى تتورم قدماه أحيانًا، فكانت أزواجه يشفقن عليه بأنه يشقّ على نفسه، فقالت له عائشة – رضي الله عنها – مرة: يا رسول الله، لماذا تشقّ على نفسك في العبادة والابتهال لهذه الدرجة وقد غفر الله تعالى لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال ﷺ: "أفلا أكون عبدًا شكورًا".(البخاري: كتاب التهجد، باب قيام النبي ﷺ حتى ترِم قدماه، والدر المنثور: قوله ﷻ إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا).. أي ما دام الله ﷻ قد غفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر، أفليس من واجبي أن أشكره على فضله هذا، فأعبده وأشكره أكثر من غيري.

فالنبي ﷺ أيضًا كان يبذل أقصى ما في وسعه دائمًا ليزداد قربًا من الله ﷻ. وهذا هو الدرس الذي علّمنا الله ﷻ بهذا الدعاء الإبراهيمي. ولو أن الناس وعوه ولم ينسوه لما ماتت روحانيتهم، ولم يستولِ عليهم الشيطان أبدًا.

ثم يقول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾..أي: يا رب اكتبْ لي الذكر الحسن ظاهرًا وباطنًا على الدوام.

علمًا أن لفظ الصدق عندما يضاف إلى شيء يدل على دوام ذلك الشيء وحسنه ظاهرًا وباطنًا حيث يقول الإمام الراغب في مفرداته: "يُعبَّر عن كل فعلٍ فاضلٍ ظاهرًا وباطنًا بالصدق، فيضاف إليه ذلك الفعل الذي يوصَف به". فإن إبراهيم عليه السلام يعني رب اجعَلْ أهل الزمن الأخير يدعون لي دائمًا أبدًا، وأن لا يُثنوا علي بلسانهم فقط، بل اجعل حسناتي تدوم في الدنيا، لأنال بذلك ذكرًا حسنًا ظاهرًا وباطنًا.

والحق أن المسلمين هم الوحيدون الذين حققوا هذا الدعاء الإبراهيمي بين أتباع جميع الديانات. من الممكن أن أبناء إبراهيم عليه السلام وأحفاده كانوا يدعون له، ولكن بعد انقضاء عدة أجيال قد نسيه أولاده الماديون والروحانيون. أما المسلمون فلا يزالون يدعون له منذ ثلاثة عشر قرنًا بدون انقطاع، وسيستمرون في ذلك إلى يوم القيامة. فإن كل مسلم يدعو في جلوس التشهد من كل صلاة قائلاً: "اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد. اللهم بارِكْ على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد". وهذا يعني أننا موقنون تمامًا بما حبا الله به إبراهيم من حُبّ ولطف عظيم.

بيد أن بعض الجاهلين بالحقائق يعتبرون هذا الدعاء إساءة إلى النبي ﷺ، فيقولون: ما دام النبي ﷺ أفضل الأنبياء قاطبة، فكيف يمكن أن يأمرنا الله سبحانه وتعالى بأن ندعوه بأن يُنـــزل بركاته وأفضاله على رسول الله ﷺ كما أنـــزلها على إبراهيم عليه السلام؟

وإجابة على هذا السؤال سأضرب بعض الأمثلة التي ستحُلُّ المعضلة. الواقع أن لشجرة البرتقال خواصَّ معينة، مثلاً إنها تتوسع إلى حد معين، وتثمر إلى حد معين، وترتفع إلى حد معين، حيث يصل طول أفضل شجرة برتقال حوالي عشرين قدمًا؛ فلو زرع المرء شجرة برتقال وبلغت هذا الطول قلنا إنها بلغت الكمال في طولها. وإذا كانت أفضل شجرة برتقال يبلغ عرضها خمسًا وعشرين قدمًا، فبلغت الشجرة التي زرعها هذا الشخص خمسًا وعشرين قدمًا، قلنا إنها قد بلغت الكمال في عرضها. وإذا كانت أفضل شجرة برتقال تثمر ألف حبة فأثمرت بهذا المقدار قلنا إنها بلغت الكمال في الإثمار. ولكن شجرة "تين البنغال" العادية يبلغ طولها ما بين ثمانين إلى تسعين قدمًا، وقد ترتفع مئتي قدم، وقد يبلغ عرضها حوالي مئتي قدم. ولو زرع أحدٌ هذه الشجرةَ، فارتفعت خمسًا وعشرين قدمًا، وبلغ عرضُها خمسًا وعشرين قدمًا، فقال أحد إنها بلغت كمالها، فلا بد أن يُعتبر غبيًا. أو لنفترض أن شجرة السِّدْر تحمل حوالي عشرين ألف حبة، فلو زرعها المرء، فأثمرت ألف حبة، وزرع غيره شجرة "تين البنغال" فبلغ عرضها خمسًا وعشرين قدمًا، وزرع الثالث

شجرة البرتقال، فاتسعت خمسًا وعشرين قدمًا أيضًا، فأخذ البعض يقارن بينها ويقول: لأن عرض شجرة "تين البنغال" مثل شجرة البرتقال، ولأن ثمرة السدر مثل ثمرة البرتقال أيضًا، فثبت أن شجرتَي "تين البنغال" والسدر أفضل من شجرة البرتقال، فلا بد أن يُعَدّ غبيًا، لأن هذا ليس دليلاً على فضلهما بل على نقصانهما.

ثبت أن الفضل والكمال أمرٌ نسبيٌّ، فمثلا لو زرعنا شجرة البرتقال، فجعلها الله بفضله ترتفع وتعرض وتثمر إلى أقصى حد ممكن، ثم زرعنا شجرة المانجو داعين الله تعالى أن يبَارك فيها كما بارك في شجرة البرتقال، فلا يعني هذا الدعاء أن يجعل الله ﷻ طولها وسعتها وثمرها بقدر طول شجرة البرتقال وسعتها وثمرها، بل المراد أن يرفعها ويوسعها ويثمرها إلى أقصى حد ممكن لتصل درجةَ الكمال في جنسها كما وصلت شجرة البرتقال حد الكمال في جنسها.

فدعاؤنا: "اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم..." يعني أنه كما بلغ إبراهيم عليه السلام حد الكمال من بين الأنبياء الذين كانوا مبعوثين إلى أقوامهم فقط، فاجعَلْ يا ربّ، نبيَّنا – الذي هو نبي من نوع آخر حيث بُعث إلى العالم كله – أن يبلغ الكمال في مجاله. ذلك أن البرتقال والمانجو و"تين البنغال" أنواع مختلفة من الأشجار، وعندما ندعو الله تعالى أن تصل المانجو درجة الكمال كالبرتقال، فلا نعني بذلك أن تثمر ألف حبة كشجرة البرتقال، بل نعني أن تثمر عشرة آلاف حبة؛ وكذلك حين نقول أن تصل شجرة "تين البنغال" كمالها مثل شجرة البرتقال، فلا نعني أن يبلغ طولها عشرين قدمًا كشجرة البرتقال بل نعني أن يصل طولها مئتي قدم.

إذًا، فالمعنى الحقيقي للصلاة الإبراهيمية إنما هو أن إبراهيم كما بلغ الكمال في نوعه من الأنبياء، فاجعل يا رب نبيَّنا ﷺ الذي هو مبعوث إلى العالم كله يبلغ درجة الكمال وفقًا لمنصبه.. أي أن تصل الشجرة المحمديةُ الذروةَ طولاً وسعةً وثمرًا.

إنما مثل هذا الدعاء كمثل شخص اشترى ماعزًا، فبارك الله له فيها، فأخذت تدرّ عليه كيلوغرام من الحليب يوميًا، وتلد سَخلَين كل ستة أشهر. ثم اشترى بقرة،

فدعا ربه بأن يبارك له فيها كما بارك في الماعز. فهل، يا ترى، يعني دعاؤه أن تدرّ عليه البقرة بكيلوغرام واحد من الحليب يوميًا، وتلد عِجلَين كل ستة أشهر مثل الماعز؟ كلا، لأن أفضل البقرات لا تدرّ بكيلوغرام من الحليب فقط، كما لا تلد أيّ بقرة عِجلَين في ستة أشهر. إنما المراد من دعائه أن تكون البقرة من أجود البقر كما كانت الماعز من أجود المعز.

إذًا، فإنما المراد من دعائنا: "اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم..." أنه كما بلغ إبراهيم عليه السلام درجة الكمال بين نوعه من الأنبياء، فليبلغ نبينا ﷺ أيضًا الكمال بحسب منصبه ومهمته. ذلك أن إبراهيم عليه السلام كان نبيًا إلى شعب عُرف فيما بعد ببني إسرائيل، فبلغ الذروة بين أنبيائهم. فكأننا ندعو الله تعالى أن يبلغ نبينا ﷺ أيضًا الذروة والكمال في مهمته نظرًا إلى منصبه وهو كونه نبيًا إلى العالم كله. لقد باركت اللهم على إبراهيم من أجل بني إسرائيل الذين كانوا عندها واحدًا بالألف من سكان العالم، فبارِكْ الآن في محمد ﷺ ألف ضعف من البركة التي جعلتها في إبراهيم من قومه، لأن محمدًا ﷺ مبعوث إلى سكان العالم كله الذين يزيدون على بني إسرائيل بألف ضعف. ذلك لأن لفظ "كما" يفيد المماثلة النسبية كما وضحتُ بمثال الماعز والبقرة، حيث يتغير معنى "كما" بتغير الجنس والنوع. لقد كان إبراهيم عليه السلام نبيًا من غير نوع الرسول ﷺ؛ كان عدد قوم إبراهيم قرابة أربع مئة ألف، ويتراوح عدد اليهود اليوم ما بين خمسة عشر مليونًا إلى عشرين مليونًا، بينما يتجاوز عدد سكان العالم اليوم مليارين.. وهذا يعني أن عدد اليهود هو واحد بالمئة من سكان المعمورة. إذًا، فالمراد من الصلاة الإبراهيمية هو اللهم بارك على محمد بمئة ضعف ما باركت به على إبراهيم فيما يخص الأمة اليهودية. فمثلاً إذا كان الله تعالى قد أعطى اليهود عشرة مليارات من المال، فليعط الأمة المحمدية ألف مليار.

وبالجملة فإن لفظ "كما" تفيد هنا الزيادة لا المساواة، لأن الجنس أو النوع مختلف. فلو كان النبي ﷺ مبعوثًا إلى العرب فقط لأفاد لفظ "كما" المماثلة والمساواة، لأن النسبة هي نسبة الماعز إلى الماعز، أو البقر إلى البقر، لكن الأمر ليس

كذلك هنا، لذلك فالمعنى أنه كما بلغ إبراهيم عليه السلام الكمال في نوعه من الأنبياء، كذلك فليوفق الله سبحانه وتعالى نبيَّنا صلى الله عليه وسلم أن يبلغ الذروة نظرًا إلى منصبه ومهمته. ومن الواضح أن من المحال أن تساوي درجة إبراهيم عليه السلام المبعوث إلى قومه فقط درجةَ النبي صلى الله عليه وسلم المبعوث إلى العالم كله، تمامًا كما أن الضابط الصغير الذي تحته عشرون جنديًا لا يساوي مرتبة القائد الكبير الذي يقود جيشًا قوامه ثلاثمائة ألف جندي مثلاً. فلو قلنا إن هذا القائد يقود جنوده كما يقود الضابط البسيط رجاله، فلا يعني ذلك أن الضابط البسيط يقود جيشًا قوامه ثلاث مئة ألف، بل إن كل عاقل لن يفهم من قولنا هذا إلا أن هذا القائد العظيم يقود رجاله بنجاح كما يقود الضابط البسيط رجاله بنجاح، مع أن بينهما بونًا شاسعًا في الحقيقة حيث إن الأول يقود ثلاث مئة ألف جندي، بينما يقود الثاني عشرين جنديًا فقط؛ ولو أُمر بقيادة مئة شخص لفشل، أما القائد فهو قادر على قيادة ألف شخص بمرتبة الضابط البسيط أيضًا.

إذًا، فعندما ندعو الله سبحانه وتعالى أن يجعل النبي صلى الله عليه وسلم يبلغ الذروة بحسب منصبه كما جعل إبراهيم يبلغ الذروة بحسب منصبه، فليس في ذلك أية إساءة إلى النبي صلى الله عليه وسلم أبدًا.

على أية حال، لقد وهب الله سبحانه وتعالى لإبراهيم كمالاً لم يهبه لأحد سواه من بين الأنبياء الذين كانوا من نوعه. وبيان ذلك أننا نجد في الدنيا أن الدول تضع خُطّتَين للرقي والتقدم: إحداهما قصيرة المدى؛ والأخرى طويلة المدى. والخطة الأولى تكون لمعالجة المشاكل العابرة، والثانية تكون للنهوض بالبلاد على المدى الطويل حيث لا تزدهر دولة في الدنيا بين عشية وضحاها، بل يتطلب ذلك بذل الجهود المتواصلة مدة ثلاثين أو خمس وثلاثين سنة، ولهذا تضع الدول خططًا للرقي طويلة المدى؛ ولكن هذا لا يعني أن تغض الدولة الطرف عن حاجات المواطنين العابرة، فمثلاً لو ضربت المجاعة البلادَ فلن تقول الحكومة بأنها مشغولة بتنفيذ خطة الثلاثين سنة القادمة، ومن ثمّ فلن تساعد المنكوبين، بل ستتركهم فريسة للموت؛ كلا، بل إنها تعمل عندها بحسب الخطة القصيرة المدى لكي لا تُعيق هذه الكوارث العابرة نجاح الخطة الطويلة المدى. والحق أن الأمم تقدم تضحيات جسيمة لنجاح الخطط

الطويلة المدى التي تستهدف إزالة مشاكل الأجيال التالية. ولكن خططهم وتضحياتهم تتضاءل أمام ما فعله إبراهيم عليه السلام.. أعني ليس هناك شعب ولا أمة وضعت خطة طويلة المدى كالتي وضعها إبراهيم عليه السلام لأجياله القادمة. ذلك أن المرء إذا رأى أحدًا يموت جوعًا، فقدم له الطعام، قيل إنه رجل محسن صالح، أو إذا وجد أحدًا من العطاشى، فسقاه، قيل إنه إنسان صالح، وإذا لم يفعل هكذا دُعي ظالمًا. ومثل هذه الحسنات والأعمال تُعَدّ من قبيل الخطة القصيرة المدى، وهي توجد في الناس بكثرة. ولكن هناك نوع من الحسنات تنفع العالم كله وهي التي تُعتبر من الخطة الطويلة المدى. يُحكى أن ملكًا مر بفلاح عجوز يغرس الأشجار التي تنمو ببطء شديد ولا تثمر إلا بعد ثمانين سنة. فقال الملك للفلاح: أمجنون أنت حيث تزرع شجرة لن تثمر إلا بعد ثمانين سنة؟ أتظن أنك ستعيش هذه المدة؟ إن موتك قريب، ولن تطول أيام حياتك أكثر من بضع سنين، فلماذا تزرع شجرة لا تنفعك شيئًا؟ فقال الفلاح: إنك ملكٌ ومن المفروض أن تكون من ذوي الخبرة. وتعلم أيها الملك أن المرء لا يقدر على أعمال الحراثة بنجاح إلا إذا بلغ من العمر حوالي عشرين عامًا، ولو زرع عندها الشجرة ليأكل ثمرها فعليه أن ينتظر ثمانين سنة أخرى، فهل ترى أنه سيعيش هذه الفترة؟ كلا، بل إن كثيرًا من الفلاحين يموتون قبل ذلك، وقليل هم الذين ينتفعون مما يغرسون، ولو أن آباءنا لم يزرعوا بناء على هذه الفكرة لما وُجدت هذه الشجرة في الدنيا، ولقال كل واحد منهم: لماذا أغرس شجرة لن آكل ثمارها؟ ولكنهم رغم ذلك غرسوا، فأكلنا الثمار، والآن نغرسه ليأكل أولادنا الثمار. فأعجب الملك قولُه فقال لوزيره: "زِهْ".. ومعناه: أحسنتَ. وكان الملك قد أمر وزيره الذي كان يرافقه في رحلاته دائمًا أنه إذا قال لأحد "زِهْ" فعليه أن يُعطيه ثلاثة آلاف درهم جائزةً. فلم يلبث الوزير أن سلّم إلى الفلاّح صرّة فيها ثلاثة آلاف درهم. فلما استلم الفلاح الصرّة قال: لماذا أعطيتني إياها؟ قال الوزير: إن الملك عندما يسره قولُ إنسان يقول: "زِهْ"، فنسلّم له صرّة الدراهم. فقال الفلاح للملك: أدام الله عمرك، لقد قلتَ لي إني أزرع شجرة لن آكل ثمرها، وبالفعل يزرع الناس الأشجار ويأكلون ثمارها بعد سنوات طويلة،

ويزرعون القمح ويحصدونه بعد ستة أشهر، ولكنك تراني آكل ثمرة شجرتي بدون أي انتظار. فقال الملك: "زِهْ". فناول الوزير الفلاحَ صرّة فيها ثلاثة آلاف درهم. فأخذ الفلاح الصرّتين في يديه وقال للملك: إن الأشجار المثمرة تحمل الثمار في السنة مرة واحدة أو مرتين على الأكثر، وبعض الزروع تُحصد بعد شهرين أو أكثر، ولا يوجد في الدنيا زرع يُحصد في نفس اليوم مرتين، ولكنني قد أكلت ثمرة شجرتي في دقيقة واحدة مرتين. فقال الملك: "زِهْ". فسلّم الوزير للفلاح صرة ثالثة، وقال الملك لرفاقه: تعالوا نهرب من هنا وإلا فإن هذا العجوز سيسلب كل ما عندنا.

فترى أن العجوز كان قد زرع الشجرة المثمرة من أجل الأجيال القادمة، هذا ما يسمى الخطة الطويلة المدى. وكما قلت إن الناس يبذلون تضحيات عظيمة من أجل الخطة الطويلة المدى، فيشترون الأراضي من أجل أولادهم كيلا يعانوا من المشاكل، ولكني لم أرَ أيًا من المزارعين اشترى الأرض لأحفاده. لا شك أن شراء الأرض من أجل الأبناء أيضًا من الخطط الطويلة المدى، ولكن كبار المزارعين أيضًا لا يشترون الأرض من أجل أحفادهم وإنما من أجل أبنائهم فحسب. إن عدد جماعتنا يبلغ مئات الآلاف بفضل الله تعالى، وأكثرهم من المزارعين، ويوجد بينهم أثرياء كبار، ولكني لم أرَ أحدًا منهم اشترى الأرض لينتفع بها أحفاده. وهناك آلاف من المسلمين غير الأحمديين ومن الهندوس والمسيحيين يأتون لمقابلتي طالبين مني المشورة والدعاء، وأعرف أحوالهم جيدًا، و لم أرَ أحدًا منهم يشتري الأراضي ويدّخر الأموال من أجل أحفاده، وإنما يفعلون ذلك من أجل أبنائهم فقط دون أن يهتم أحد منهم بأحفاده. ولكن انظر إلى عظمة الخطة الطويلة المدى التي اتبعها إبراهيم عليه السلام. لقد كان له ابنان، فأمَر أحدَهما، وهو إسحاق، بالذهاب إلى بلد عامر ليقوم بالدعوة بين أهله، بينما ترك ابنَه الآخر، وهو إسماعيل، في مكة التي كانت حينها واديًا غير ذي زرع، وذلك لأن الشعب الذي سيستوطن هذا المكان بعد خمسة عشر قرنًا سيحتاجون إلى هاد، فيقوم نسله بهدايتهم ورفع كلمة الله بينهم. فترى كم هي طويلة هذه الخطة. يُقال أن قبيلة جُرْهم مرّوا بالوادي بعد أن

ترك فيه إبراهيم ابنه إسماعيل بيومين، وسكنوا هناك. وبما أن عددهم كان قليلاً جدًا ربما لم يتجاوز خمسين أو ستين فردًا، ولذلك لم تصبح مكة بلدًا عامرًا في حياة إسماعيل، بل استغرق ذلك حوالي خمسة عشر قرنًا بعده عليه السلام.

إذًا، لقد أسكن إبراهيم إسماعيلَ في واد غير ذي زرع ليقوم نسله بالدعوة بين الناس عندما تُعمر تلك البرية بعد خمسة عشر قرنًا. وهذه الخطة تماثل أن يقوم أحد من رجالات الدين الهندوسي أو البوذي أو الجيني من زمن الملك الهندي "أشوكا" أو "بكرماجيت" بإسكان بعض من أولاده في برية "سرجودها" أو "مونت غومري"• ليرفعوا كلمة الله سبحانه وتعالى بين أهلها حين يتم عُمرانها. إذًا، فقد قام إبراهيم عليه السلام بخطة طويلة المدى فعلاً. كان له ابنان فقط فبعث أحدهما إلى منطقة مأهولة بالسكان ليقوم بالدعوة بين أهلها، بينما أسكن ابنه الآخر في واد غير ذي زرع حتى إذا تمّ عمرانه قام نسله بدعوة الناس إلى الله سبحانه وتعالى. وكما قلت لم يضع أحد من الشعوب أو القبائل أو العشائر أو أي فئة من العلماء أو جماعة من الفلاسفة أيَّ خطة طويلة المدى كالتي وضعها إبراهيم عليه السلام، لا سياسيًا ولا تجاريًا ولا علميًا. إن إبراهيم عليه السلام لم يخطط من أجل بضعة أيام، بل لمئات بل آلاف السنين، مع أنه لم يكن يعرف متى سيتم عمران برية العرب وكم سيقاسي أولاده هناك. لا شك أن وحي الله سبحانه وتعالى أيضًا قد لعب دوره فيما نواه إبراهيم عليه السلام وفيما وقع من الأحداث، ولكن الله سبحانه وتعالى ينظر إلى قلوب عباده ويُنـــزل وحيه بحسب إخلاصها، فلو لم يكن قلبه عليه السلام مفعمًا بمشاعر الإخلاص والفداء لهذه الدرجة لما أمره الله سبحانه وتعالى بذبح ابنه، ولو لم يكن في قلبه رغبة عارمة للتضحية في سبيله سبحانه وتعالى لما هيأ له الأسباب المواتية لذلك. إن إتاحة هذه الأسباب من عند الله سبحانه وتعالى دليل على وجود تلك الأمنية الشديدة في قلبه عليه السلام، ولذلك ندعو الله تعالى: "اللهم صلِّ على محمد وعلى آل

• سرجودها ومونت غومري محافظتان في باكستان، وكانت معظم أراضيهما غير عامرة قبل حُكم الإنجليز على الهند. (المترجم)

محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد". عندما نردد الصلاة الإبراهيمية نتذكر تلك الرغبة العارمة التي كانت تختلج في قلبه عليه السلام، وتمتلئ قلوبنا حماسًا لنرفع اسم الله ﷻ في العالم كله؛ ونجعل أرجاء الأرض كلها، سواء المأهولة منها أو غير المأهولة، تدوّي بصوت: الله أكبر، الله أكبر.

هناك موضع في جبال "دلهوزي" يدعى "كهجيار" ويبعد عن المدينة حوالي اثني عشر ميلاً، وتوجد فيه بحيرة صغيرة طولها مئتا قدم وعرضها مئتا قدم تقريبًا. وتوجد بتلك البحيرة جزيرة صغيرة عائمة؛ الله أعلم كيف انفصلت عن اليابسة وأخذت تعوم في البحيرة. والجزيرة مكونة من التراب والكلأ ويبلغ حجمها حوالي خمسة وثلاثين قدمًا، وإذا هبت الريح تحرّكت من هنا إلى هناك، ويعتقد الهندوس أن الجزيزة آية من آيات الله ﷻ. ويوجد بالقرب من هذه البحيرة معبد هندوسي بناه الهندوس تذكارًا لأحد نسّاكهم. ويقال إنه أراد معرفة قعر البحيرة، فلم يزل يفتل الحبل ويلقيه في البحيرة طيلة ثمانين سنة، ومع ذلك لم يصل الحبل إلى قعرها، وفي الأخير قفز في البحيرة وهو يهتف أنت الإله، وغرق.

وذهبت مرة إلى "كهجيار"، وقلت لرفاقي علينا أن نصعد على هذه الجزيرة العائمة في البحيرة، وقلت لأحد منهم أن يعقد الهمة ويجمع بعض الخشب من جذوع الأشجار المبعثرة هناك لنحاول بها الوصول إلى الجزيرة. ولم يوجد هناك أحد من الهندوس أو الموظفين الحكوميين ليمنعنا مما أردنا. فألقينا جذع شجرة في البحيرة وقلنا لرفيقنا هذا أن يتمسك بالجذع لندفعه فيصل إلى الجزيرة العائمة. وأعطيناه مجدافًا أيضًا حتى يستعين به عند الحاجة. فدفعنا الجذع ووصل أخونا إلى الجزيرة، وسحبها إلينا رويدًا رويدًا، وعندما اقتربتْ منا قلت لأصحابي: تعالوا نصعدها ونرفع اسم الله عليها، فإنها فرصة تاريخية إذ لم يرفع أحد اسم الله عليها قبلنا. فصعدناها ورفعنا الأذان مرة بعد أخرى. ولما علمت الحكومة بذلك سنّتْ قانونًا يحظر على الناس سحب الجزيرة أو الصعود عليها. ولكنا تمكّنّا من رفع الأذان ورفع اسم الله عليها على أية حال. وبينما كنا نرفع الأذان على الجزيرة جاء أحد مجاوري المعبد، ولكنه لم يتجاسر على منعنا من الأذان بل حاول تخويفنا حيث

قال: إن في الجزيرة ثعبانًا كبيرًا فأخاف أن يلدغ بعضكم. فقلت: لا تخف علينا من الثعبان وسوف نرفع الأذان حتمًا. ذلك لأن المؤمن يتمنى بشدة أن يرفع اسم الله ﷻ في مكان لم يرفع اسمه فيه. فعليكم أن تتحلّوا بالحماس الإبراهيمي، فاخرجوا للدعوة إلى البلاد المأهولة، وأسكِنوا أولادكم في البلاد التي لم يتم عمرانها بعد كما أسكن إبراهيم أولاده في برية العرب ليرفع أولاده اسم الله فيها إذا ما تم عمرانها. عليكم بعمران صحراء "غوبي" وغيرها من الأماكن التي لا تزال حتى اليوم براري قاحلة، فعسى الله ﷻ أن يمكّن الإنسان من اختراع أجهزة كهربائية تساعد على عمرانها؛ وهذا ليس بأمر مستبعَد، لأن المناطق المسكونة اليوم كانت غير مسكونة في يوم من الأيام. فإذا كنا نوفد دعاتنا من ناحية إلى أمريكا وإفريقيا وإنجلترا وألمانيا وإيطاليا وغيرها من البلاد المأهولة، فعلينا من ناحية أخرى بإسكان الأحمديين في المناطق الصحراوية غير المأهولة في "غوبي" وفي الهند والجزيرة العربية وغيرها من البلاد، حتى إذا تم عمرانها وُجد فيها ذرية الأحمديين الذين يرفعون بين أهلها اسم الله ﷻ واسم رسوله ﷺ. ذلك لأن السنة الإبراهيمية هي إيفاد الدعاة إلى المناطق المأهولة، وإسكان الأولاد في المناطق غير المأهولة. وسيبارك الله كل خطوة تتخذونها مدفوعين بهذه العاطفة والحماس، وسيعاملكم كما عامل نسل إبراهيم عليه السلام. إننا حين ندعو الله ﷻ ليلاً ونهارًا في الصلاة الإبراهيمية فلا نقول فيها "كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم" إلا لأن نسله كانوا متحلين بهذه العاطفة والحماس، حيث أخذ بعضهم يقومون بالدعوة في المناطق المأهولة، وذهب بعضهم ليسكنوا في البراري الجرداء. واليوم أيضًا لن يرث أولاد محمد ﷺ الروحانيون هذه البركات ما لم يقم فريق منهم بالدعوة في المناطق المأهولة ليأتوا بأهلها الضالين إلى الصراط المستقيم، وما لم يذهب فئةٌ منهم ليسكنوا في الأراضي غير المأهولة حتى إذا تمّ عمرانها وُجد فيها قوم يضحّون بأنفسهم في سبيل الله، فتدوّي بقاع الأرض كلّها، المأهولة منها وغير المأهولة، بأصوات التكبير.

ثم يقول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾، والمراد من أبيه هنا عمه، الذي كان يعبد الأصنام. ذلك لأن الواضح من التاريخ أن أباه كان قد تُوفي

في صغره، فتربى عند عمه (الموسوعة اليهودية تحت كلمة: Abraham)، كما تربى نبينا محمد ﷺ بعد وفاة أبويه عند عمه أبي طالب الذي كان أيضًا من عبدة الأصنام. والثابت من القرآن أن لفظ الأب يُستعمل بمعنى العم أيضًا، فقد ورد في القرآن أن يعقوب عليه السلام سأل أبناءه قبيل وفاته: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾(البقرة:١٣٤). فترى أنهم قد أطلقوا هنا لفظ الأب على إبراهيم الذي كان جدَّ يعقوب، وعلى إسماعيل الذي كان عمَّه.

وهنا أيضًا ليس المراد من الأب إلا عمه الذي لم يترك عبادة الأصنام وإن كان إبراهيم عليه السلام قد استعمل لفظ الأب حيث قال: ﴿وَاغْفِرْ لأَبِي﴾. وقد قام عليه السلام بهذا الدعاء لأن القرآن الكريم يخبرنا أن عمه هدده قائلاً: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾(مريم:٤٧).. أي إذا لم ترتدع عن عيب آلهتنا فسوف أقتلك رشقًا بالأحجار، فالأفضل أن تغيب عني لبعض الوقت حتى لا أُصيبك بضرر من فورة الغضب، فأجابه إبراهيم عليه السلام: ﴿سَلامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾(مريم:٤٨).. أي رغم أنك تعاملني بقسوة إلا أنني سأدعو ربي أن يرحمك ويغفر لك فإنه كان بي لطيفًا. فلأن إبراهيم كان قد قطع هذا الوعد لعمه فدعا ربه ﷻ بحسب الوعد وقال: ﴿وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾. بيد أن القرآن الكريم يخبرنا أيضًا أن الله ﷻ لما كشف على إبراهيم أن عمّه عدوّ للتوحيد تبرّأ منه، حيث يقول الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ۝ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾(التوبة:١١٣- ١١٤). وقوله ﷻ: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ يعني إما أن يخبرهم الله أنهم قد صاروا من أصحاب الجحيم بسبب إنكارهم وحدانيته ﷻ، أو أن يموتوا في حالة الشرك فيعرف الجميع أنهم ماتوا مشركين.

وهناك دليل آخر على أن الأب هنا بمعنى العم، وذلك أن القرآن الكريم يخبرنا من جهة أنه لما تبين لإبراهيم عليه السلام أن أباه عدو لله؛ أي قد مات في حالة الشرك، امتنع

عن طلب المغفرة له كلية، ولكن يخبرنا القرآن من جهة أخرى أن إبراهيم دعا ربه عند بناء الكعبة وقال: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾(إبراهيم:٤٢). والظاهر أنه عليه السلام قد بنى الكعبة بعد أن أصبح إسماعيل شابًا. وبما أن إبراهيم رُزق إسماعيل وإسحاق في كبره، فثبت أنه قام بدعاء: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ في الفترة الأخيرة من عمره، بينما قام بدعاء: ﴿وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ﴾ في الفترة الأولى من عمره، ثم ترك هذا الدعاء. فلو كان الأب هنا بمعناه العام لما دعا إبراهيم عليه السلام لمغفرة أبيه بعد أن أصبح إبراهيم شيخًا هرمًا وعَلِم علم اليقين أن أباه عدو لله سبحانه وتعالى. فدعاؤه لمغفرة والديه في آخر عمره عند بناء الكعبة يدل على أنهما قد تُوفيا في زمن "الفترة".. أي حين لم يكن هناك نبي.. فلذلك دعا لمغفرتهما، أما عمه فقد بُعث إبراهيم نبيًا في حياته، فدعاه إلى التوحيد ولكنه أصر على الشرك ومات مشركًا، لذلك امتنع إبراهيم عن الدعاء له خلافًا لما وعده من قبل. والثابت من القرآن الكريم أن الذين يموتون قبل بعثة نبي في قومهم ولا تقام عليهم الحجة، فأمرُهم مختلف عن الذين يُبعث فيهم نبي ويقيم عليهم الحجة. قال الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(المائدة:٢٠).. أي يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا بعد فترة طويلة من انقطاع بعثة الرسل مبينًا لكم أحكامنا كي لا تقولوا يوم القيامة ما جاءنا بشير ولا نذير.

لقد ثبت من هنا أن القرآن الكريم قد اعتبر عدم الاطلاع عذرًا مقبولاً، حيث بيّن أنه قد يكون دليلاً على صدق ادعاء قوم ماتوا على الكفر والشرك، لذلك قد أزال الله سبحانه وتعالى هذا العذر فبعث إليهم أنبياءه لينشروا هداه بينهم ويقيموا الحجة عليهم، فلا يبقَ لهم مجال للعذر.

غير أنني أرى أن قضية عدم إقامة الحجة أيضًا بحاجة إلى إعادة النظر. ذلك لو قلنا إن الحجة إنما تقوم على الناس عند مجيء نبي إليهم لكان معنى ذلك أن الحجة إنما تقوم على الذين يجدون زمنَ نبي، أما غيرهم فلا تقوم عليهم؛ ولو سلّمنا بهذا

لصار معظم الناس من الذين لم تقم عليهم الحجة، ذلك لأن الأنبياء لم يُبعثوا إلا في فترات قليلة في آلاف السنين، إذ نجد هناك فترات طويلة مرت بدون بعثة نبي، وهكذا نضطر للقول بأن الحجة إنما تقوم على الذين كانوا في زمن نبي، أما باقي الناس فلا تقوم عليهم أي حجة. لذلك أتناول هذه الشبهة أولاً.

فاعلم أن هذه الآية القرآنية لا تعني أن الحجة إنما تقوم على الذين يوجدون في زمن نبي فيكفرون به، بل يتضح من القرآن الكريم أن كل نبي له نوعان من الحياة: حياة جسم وحياة فيوض. فهناك فترة يكون النبي فيها حيًا بين القوم بجسده، وهناك فترة يكون فيها حيًا بينهم بفيوضه، وكلتا الفترتين من حياته سيّان فيما يتعلق بأعذار الناس وإقامة الحجة عليهم، حيث يوجد في فترة حياته الفيضانية قوم سمعوا كلام الله بلسان النبي مباشرة وينالون نصيبهم من قوته القدسية. لا شك أن هناك بونًا شاسعًا بين النبي وبين أتباعه، ولكن مما لا شك فيه أيضًا أن الناس كما رأوا الإله الحي من خلال النبي ﷺ كذلك رأوه بواسطة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي أيضًا رضوان الله عليهم أجمعين، كما رأوا نفس الإله الحي بواسطة الحسن البصري وعمر بن عبد العزيز والجنيد البغدادي ومحيي الدين بن عربي وشهاب الدين السهروردي ومعين الدين الجشتي وسيد عبد القادر الجيلاني رحمهم الله أجمعين. فهم قوم حافظوا على ما في الإسلام من تأثيرات الإحياء، واستمرت من خلالهم حياةُ فيوض النبي ﷺ. ذلك لأنه ليس المهم مقدار الشيء، وإنما المهم وجوده، لأنه إذا وُجد فكونه قليلاً أو كثيرًا يصبح قضية ثانوية. فمثلاً توجد في الدنيا أنواع كثيرة من البقر والخيل، وبعضها أفضل من بعض. فلو رأى المرء بقرة أو حصانًا من نوع أجود، ثم قال: لن أصدق بوجود البقر أو الخيل في الدنيا ما لم أرَ بقرة أو حصانًا بهذه النوعية الجيدة فسوف يُعَدّ مخطئًا. فمثلاً زرت مرة ولاية "كبورتهلة"، ورأيت هناك بقرة للمهراجا قد جلبها من إنجلترا وبلغ ثمنها ثلاثة آلاف روبية. فلو قال شخص: لم أرَ أية بقرة، وهو يقصد بقرة المهراجا التي ثمنها ثلاثة آلاف روبية، فلن يصدقه أي عاقل. كذلك يوجد بين الخيل فرس هجين يمكن أن تشتريه بثمن بخس، وعلى النقيض يوجد بين الخيل حصان أصيل يبلغ ثمنه مليونين

ونصف المليون روبية. فلو سمع أحد عن هذا الحصان الغالي ثم قال: لم أرَ أي حصان، وهو يقصد نفس ذلك الحصان الأصيل الذي يبلغ ثمنه مليونين ونصف المليون، فلن يصدقه أي إنسان. ذلك لأنه إذا كان قد رأى حتى حصانًا مريضًا نحيفًا فلا يجوز له أيضًا القول إنه لم يرَ حصانًا قط. كذلك لو رأى الناس أثر حياة فيوض الرسول ﷺ في إنسان وإن لم يكن أثرًا كبيرًا واضحًا، ورأوا انعكاس الله ﷻ في مرآة قلب هذا الإنسان بحيث لا يسعهم إنكار البارئ تعالى بل يعترفون أنهم قد رأوه ﷻ بواسطة هذا الإنسان، فلا يصح لأحد القول إني لن أصدّق ذلك ما لم أرَ الله ﷻ كما رآه الناس في حياة النبي ﷺ. ذلك أنه إذا ثبت وجود شيء فإنكاره إنكار للحقائق الثابتة. أما كون ذلك الشيء صغيرًا أو كبيرًا فهذا أمر آخر تمامًا.

إذًا، فكل أولئك الذين يوجدون في زمن الحياة الفيضانية لنبي فإن الحجة تقوم عليهم حتمًا، إذ يرون على أيدي الذين تربَّوا في كنف النبي أو عملوا بتعاليمه آيات تدل على وجود الإله الحي. وإننا نرى في الإسلام أن الفيوض المحمدية جارية في أمته باستمرار دونما انقطاع. لقد بدأت هذه الفيوض تسطع منذ فجر الإسلام واستمرت في سطوعها بدون انقطاع من خلال المجددين وأتباعهم ومريديهم حتى زمن حضرة سيد أحمد الشهيد البريلوي رحمه الله، فشكّلت دليلاً على استمرار فيوض الرسول ﷺ. فقد نـــزلت عليهم إلهامات من عند الله ﷻ، فكانوا يذكرونها للآخرين، فازداد الناس يقينًا بوجود الله تعالى. ولم يُبعث هؤلاء المجددون في الهند فقط، بل بُعثوا في باقي العالم أيضًا، فكانوا سببًا لهداية الناس ورشدهم.

وهناك سوء فهم عند الناس فيما يتعلق بالمجددين، حيث ظنوا أن مجددًا واحدًا كان يُبعث إلى العالم كله، وهذا خطأ. الحق أن الله تعالى يبعث المجددين في كل قطر وفي كل منطقة، ولكن الناس يظنون أنه مجدد للدنيا كلها، مع أن الإسلام ما دام للعالم كله فكان لزامًا أن يُبعث كثير من المجددين في شتى بقاع العالم. لا شك

أن سيد أحمد الشهيد البريلوي* – رحمه الله – كان مجددًا في عصره، ولكنه لم يُبعث للدنيا كلها، بل كان مجددًا لأهل الهند فقط. إذا كان مجددًا للعالم كله فمتى عمل لهداية أهل الجزيرة العربية ومصر وإيران وأفغانستان؟ كلا، إنه لم يعمل أبدًا لهداية أهل هذه البلاد. ولكنا عندما نفحص تاريخ هذه البلدان نجد فيها أُناسًا تلقوا الوحي والإلهام وعملوا على هداية أهلها، وكل واحد منهم كان مجددًا، والفرق الوحيد أنهم يختلفون درجة ومكانة. لا شك أن للمجددين المبعوثين في الهند أهمية خاصة كونها البلاد التي كان سيُبعث فيها المسيح الموعود، فكانوا بمثابة إرهاص لبعثته عليه السلام، وإلا فلا نعني أبدًا أن هؤلاء وحدهم بُعثوا مجددين في الإسلام، بينما ظلت باقي الدنيا خالية من المجددين. الواقع أن كل إنسان يقوم بالتجديد الديني بناء على الوحي هو مجدد روحاني، وكل إنسان يقوم بأي عمل تجديدي للإسلام والمسلمين هو أيضًا مجدد وإن لم يكن مجددًا روحانيًا. لقد ذكرتُ مرارًا أن المسيح الموعود عليه السلام قد سمى "أورنغ زيب"• مجددًا، مع أنه لم يدّع بتلقي الإلهام قط.

إذًا، فإن فترة استمرار الفيوض الروحانية لنبي تُعَدّ أيضًا فترة حياته. وعليه فإن فترة انقطاع الوحي تصبح في الواقع قصيرة جدًا. صحيح أن هناك بلادًا تبدو فترة انقطاع الوحي فيها طويلة نسبيًا، ولكن الحق أن الفيوض الإلهية ظلت تنـــزل بدون انقطاع في البلاد المجاورة لها. خذوا مثلاً بلاد العرب، فقد أتت عليها فترة طويلة

---

* وُلد حضرة سيد أحمد البريلوي – رحمه الله – عام ١٢٠١ الهجري الموافق عام ١٧٨٦ الميلادي في "رائي بريلي" بالهند. كان من أولياء الله الكبار. خرج، بناء على إشارة سماوية، لمحاربة السيخ الحاكمين الذين منعوا المسلمين من القيام بأداء شعائرهم الدينية، وساموهم سوء العذاب. فدارت بين الفريقين معارك ضارية. وأصيب حضرته في إحدى المعارك بجراح تسببت في استشهاده يوم ٢٤ من ذي القعدة ١٢٤٦ الهجري الموافق ٦ مايو ١٨٣١الميلادي. ودُفن في "بالا كوت".
لقد اعتبره سيدنا المسيح الموعود عليه السلام إرهاصًا لـــه ومجددًا للقرن الثالث عشر، وقد انضم بعض مريديه إلى جماعته عليه السلام. (المترجم)

• هو أحد الملوك المغول بالهند، وكان لا ينفق على نفسه من بيت المال بل كان يكتب القـــرآن الكريم ويعيش على ما يكسب به. (المترجم)

من انقطاع الوحي، وإن كان البعض يقول ببعثة بعض الأنبياء في تلك الفترة أيضًا، حيث اعتبر البعض خالد بن سنان نبيًا.◈

ولو اعتبرنا هذا القول صحيحًا لم تعد فترة انقطاع الوحي عن العرب فترة طويلة. ومع ذلك لو سلّمنا بطول فترة انقطاع الوحي عن بلاد العرب فأيضًا لم يزل الله ﷻ يبعث في البلاد المجاورة للعرب رسلاً دعوا الناس إلى الله ﷻ ودللوا على وجوده ﷻ بالآيات والمعجزات. لم يكن ضروريًا أن لا تقام الحجة على العرب إلا بواسطة نبي يُبعث فيهم مباشرة. فما دام الله تعالى قد ظهر على العرب من خلال داود وسليمان وعيسى ويحيى وذي القرنين – الذي هو الملك الفارسي كورش – حيث تلقى كل واحد منهم الوحي وبُعث في البلاد المجاورة للعرب، فما كان يحق لهم – إذا كان الوحي قد انقطع عنهم فترة من الزمن – أن يقولوا: لم نعرف أن الشرك أمر سيئ؛ ذلك لأن هؤلاء الأنبياء كلهم قد عرضوا على الناس عقيدة وحدانية الله تعالى مرة بعد أُخرى، وقد بُعثوا في جوار العرب كما قلت آنفًا ولم يكن العرب يجهلون أحوالهم وتعاليمهم. وعليه فإن الفترة التي لم يُر فيها نور الله ﷻ تصبح قصيرة جدًا. لا شك أن فترة انقطاع الوحي قد طالت على العرب إلى حد ما، ولكن الله ﷻ قد بعث فيهم خاتم النبيين وذلك ببركة دعاء إبراهيم لهم أوّلاً، وتعويضًا عن انقطاع الوحي عنهم مدة طويلة ثانيًا، وهكذا سدّ النقص الذي حصل بشأنهم.

على أية حال، إن ما أؤكد عليه هو أنه لا تُغفر لقوم أعمالهم المنافية لوحدانية الله ﷻ بحجة أنه لم يُبعث فيهم نبي لإقامة الحجة عليهم، إذ لم يبرح الله ﷻ يدحض هذا العذر دائمًا، ويقيم الحجة عليهم ببعثة الأنبياء فيهم، سواء أتمت هذه الحجة عليهم في فترة حياتهم الجسمانية أو في فترة حياتهم الفيضانية.

◈ هناك رواية تقول: عن بن عباس دخلتْ ابنةُ خالد بن سنان على النبي ﷺ فقال: مرحبًا بابنة نبي ضيّعه قومه. (البداية والنهاية للدمشقي: الجزء الثاني، فصل: تفويض قُصيّ أمر الوظائف لابنه عبد الدار، ذكرُ جماعة مشهورين في الجاهلية) *(المترجم)*

أما الذين لا يوجدون في فترة حياة الأنبياء الجسمانية ولا في فترة حياتهم الفيضانية فأمرُهم مختلف تمامًا، حيث ورد في الحديث أن الله ﷻ سيبعث يوم القيامة رسولاً لاختبار مثل هؤلاء القوم، فيجزي كل واحد منهم حسب طاعته له أو كفره به.

لقد تبين من هنا أن الأهمية التي تكتسبها الأحكام الإلهية في زمن نبي لا تبقى في أيام "الفترة"؛ أعني بالفترة الزمنَ الذي تنتهي فيه الحياة الفيضانية لنبي أو تفتر مؤقتًا. فمثلاً إن النبي ﷺ حي بفيوضه الروحانية، ولكن قد أتت على أمته فترة قصيرة حيث لم يُوجد فيها من يتلقى في مرآة قلبه روحانيته ﷺ وأنواره، فيعكس أشعتها على الناس لتنويرهم. ولكن الواقع أن تلك الفترة كانت قصيرة جدًا، حيث لم يغفل تلاميذ حضرة سيد أحمد البريلوي الشهيد عن خدمة الدين فور وفاته حتى يُقال إن هذه الفترة بدأت إثر وفاته فورًا. لقد استُشهد سيد أحمد البريلوي في ٦ مايو/ أيار ١٨٣١م (سيد أحمد شهيد (أردو) ص ٤١٤)، وقد بدأ المسيح الموعود عليه السلام يتلقى الوحي والإلهام في حوالي ١٨٦٤م، وأخذ يكتب المقالات دفاعًا عن الإسلام في عام ١٨٧٢م (سيرت حضرت مسيح موعود عليه السلام (أردو) ص ٧١)، وهذا يعني أنه لم تنقضِ بعد وفاة حضرة البريلوي الشهيد فترةٌ تساوي عمر إنسان حتى بعث الله ﷻ شخصًا آخر لإصلاح الناس، وهذا برهان واضح ساطع على الحياة الفيضانية للنبي ﷺ، ويؤكد أن فترة الانقطاع في الإسلام قصيرة جدًا، بل لم تكن إلا كبرهة من الزمن، إذ لم يمت مجدد في مكان إلا وبُعث آخر في مكان آخر، وهكذا ظلت الفيوض النبوية تصل إلى الناس دائمًا. ولكن إذا ما انتهت الحياة الفيضانية لنبي وطالت بعده فترة انقطاع الوحي،

فتكتسب الأحكام الشرعية بصدد من وُلد في تلك الفترة صبغةً مختلفة، فلا بأس بالدعاء له بالمغفرة مطلقا.

وتتحدث الآية قيد التفسير عن شخص كان في زمن نبي.. أعني أن عم إبراهيم عليه السلام كان موجودًا عندما دعا عليه السلام قومه إلى التوحيد، فالشخص الذي يدعوه نبي إلى التوحيد ولكنه يُصر على الشرك، بل يحاول أن يقهر النبيَّ على ترك التوحيد، فلا شك أنه يُعامَل بغير ما يُعامَل به الذين يوجدون في أيام "الفترة". ولذلك نجد إبراهيم عليه السلام امتنع عن أن يدعو لعمه بالمغفرة وتبرأ منه، أما والداه اللذان ماتا في أيام "الفترة" فلم يبرح يدعو لهما في كبره أيضًا، إذ كان حكمهما مختلفًا عن حُكم عمه. ومثال ذلك ما حصل في قضية حياة المسيح الناصري عليه السلام، فإن المسلمين الذين قد ماتوا وهم يعتقدون أن المسيح عليه السلام حيٌّ، قد اعتبرهم المسيح الموعود عليه السلام من الصالحين والأولياء، رغم أنه كان يعتبر هذه العقيدة الخاطئة سببًا لقوة المسيحية وازدهارها في الزمن الحاضر. ذلك لأن الذين خلوا من قبل بعثة المسيح الموعود عليه السلام لم يدركوا خطر هذه العقيدة على الإسلام، أما الآن فقد انكشفت هذه الحقيقة على الناس بكل جلاء. وبالمثل كان والدا إبراهيم عليه السلام قد توفيا في زمن "الفترة"، ولذلك دعا لهما بالمغفرة، أما عمه فقد أصرّ على الشرك رغم أن إبراهيم عليه السلام دعاه إلى التوحيد، ولذلك تبرأ منه و لم يدعُ له بالمغفرة بعد ذلك.

لقد ذكر القرآن أن اسم أبي إبراهيم هو "آزر" (سورة الأنعام:٧٥)، ولكن التوراة تقول إن اسمه "تارح" (التكوين ١١: ٢٧)، وحيث إن المستشرقين المسيحيين يعتبرون كل ما ورد في كتابهم وحيًا سماويا، فيزعمون أن القرآن قد أخطأ حين أخبر أن اسم أبي إبراهيم "آزر" خلافًا لما ورد في التوراة.

والواقع أن الكتاب المقدس ليس مصدرًا تاريخيًا، كما أنه ليس حجة علينا. والحق أن بياناته متعارضة ومتناقضة بحيث لا يمكن اعتبارها صحيحة إزاء ما يقوله القرآن الكريم. فإن الذين كتبوا اسم أبي إبراهيم في الكتاب المقدس لم يكونوا معاصرين له، بل جاءوا بعده بأكثر من قرنين وربع قرن من الزمان؛ فكيف يُعتبر قولهم صحيحًا من الناحية التاريخية؟ ومما يدل على خطأ بيان التوراة قولها بأن

عدد المحاربين من بين بني إسرائيل الذين خرجوا مع موسى عليه السلام من مصر بلغ ستمئة ألف (الخروج ١٢: ٣٧)، وهذا يعني أن عددهم الإجمالي رجالاً ونساء وولدانًا كان قرابة مليونين ونصف المليون. ومن المحال أن يتكاثر بنو إسرائيل في غضون قرنين وربع القرن بحيث يصل عددهم إلى هذا الحد. يمكن أن يبلغ عددهم في تلك الفترة أربعة آلاف على الأكثر، شريطة ألا يوجد بينهم امرأة عاقر ولا رجل عقيم. فلو سلّمنا أنهم كانوا يتكاثرون بأقصى ما يمكن أن يتكاثر به أي فئة من الناس، وأن عددهم كان يصبح ضِعفين كل أربعين سنة، فكان يجب أن يصل عددهم أربعة آلاف على الأكثر حتى زمن موسى عليه السلام. ولكن التوراة تزعم أن عدد المحاربين بينهم وحدهم وصل ستمائة ألف لدى خروج موسى عليه السلام من مصر.. أي أن عددهم الإجمالي بلغ حوالي مليونين ونصف المليون. ولكن القرآن الكريم الذي جاء بعد موسى عليه السلام بألفي سنة يخبر أنهم كانوا ألوفًا (البقرة:٢٤٤)، وهو نفس العدد الذي قدّرته لبني إسرائيل على أقصى تقدير. إذًا، فكيف يمكن أن يُعتبر الكتاب المقدس مصدرًا تاريخيًا؟ إنه ليس تاريخًا وإنما هو قصص وحكايات، وإذا كنا نحترم هذا الكتاب فإنما لأن الله سبحانه وتعالى أخبرنا أنه أنـــزله على موسى، وإلا فإنه قد تعرَّض للعبث والفساد بأيدي الناس بحيث لا يمكن الثقة به ثقة كاملة.

ثم يزعم الكتاب المقدس أن هارون أشرك بالله سبحانه وتعالى وصنع بيده عجلاً للعبادة (الخروج ٣٢: ٢-٦). ولكن القرآن الكريم يعلن أن هارون لم يقع في الشرك قط، بل حاول منع الآخرين منه، الأمر الذي يليق بمكانة النبي. (طه: ٩١)

فما دام الكتاب المقدس قد أخطأ في ذكر العديد من الحقائق التاريخية، فكيف يقال إنما الاسم الصحيح لوالد إبراهيم عليه السلام هو ما ورد في الكتاب المقدس وأن القرآن قد أخطأ في ذكر اسمه؟

ثم إذا كان بيان الكتاب المقدس هو الصحيح، وإذا كان الاسم الحقيقي لوالد إبراهيم هو "تارح"، فلماذا ورد في التلمود أن اسم أبيه "زارا"؟ ولماذا قال المؤرخ اليهودي الشهير "جوزيفيوس" إن اسم أبيه هو "آذر" (راجعْ ترجمة القرآن للمستشرق Sale ص ١٧٧-١٧٨). إن هذا الاختلاف بين اليهود يشكل دليلاً حاسمًا على أنهم

كانوا مختلفين في اسم أبي إبراهيم، وبما أن القرآن الكريم جاء ليزيل الاختلاف الموجود في الصحف السابقة، ففصل في هذا الاختلاف، مبيّنًا أن اسم أبيه "آزر".

بيد أنه من الممكن أن يكون اسم "آزر" المذكور في القرآن الكريم تعريبًا لاسم "تارح"، حيث تُقلَب التاء إلى الزاء، ويضاف الألف عند عملية القلب. ويبدو أن العرب كانوا يجدون الصعوبة في نطق "تارح"، فحولوه إلى "زارا" ثم إلى آزر. وبما أن القرآن يستعمل عادة أسماء معربة، حيث عرّب إبراهام إلى إبراهيم، ويسوع إلى عيسى، ويوحنا إلى يحيى، وأخنوخ إلى إدريس، فكذلك عرّب "تارح" إلى "آزر". إذًا، فلا مجال للاعتراض.

ثم إننا لا نُسلّم بأن الأب هنا بمعنى الأب الحقيقي، إنما هو بمعنى العم، ولأجل ذلك عندما ذكر القرآن الكريم دعاء إبراهيم عليه السلام لأبويه في موضع آخر استعمل لفظ "الوالد". فما دمنا نعتبر "آزر" عم إبراهيم فلا اعتراض على القرآن الكريم إن كان الكتاب المقدس يقول إن اسم أبيه هو "تارح". إنما يجوز الاعتراض إذا كان الكتاب المقدس يقول إن اسم عمه "تارح"، ولكنه لا يقول كذلك بل يعلن أن "تارح" هو أبوه الحقيقي، بينما يقول القرآن أن اسم عمه هو "آزر". فلا مجال للاعتراض.

ويدعم ذلك ما ورد في الكتاب المقدس حيث قيل: إن سارة زوجةَ إبراهيم كانت بنتًا لتارح (التكوين ٢٠: ١٢). فلو اعتبرنا "تارح" أبًا حقيقيًا لإبراهيم لكان معنى ذلك أن إبراهيم تزوج بشقيقته، مع أن الزواج بالشقيقة كان حرامًا عندهم. فهذا أيضًا يؤكد أن "تارح" لم يكن أبًا حقيقيًا لإبراهيم، وإنما كان عمه. فبما أنه كان قد تربى في بيت "تارح" فنسبه الناس إليه خطأً، ثم إن المؤرخين أيضًا اعتبروه ابنه. ولكن التلمود قام بإصلاح الكتاب المقدس موضحًا أن سارة لم تكن شقيقة إبراهيم بل كانت ابنة عمه.

كما ورد في التلمود أيضًا أن إبراهيم عليه السلام لما رفع صوته ضد الأصنام تضايق منه "آزر" وشكاه إلى الملك. وصدور مثل هذه الفعلة من قبل الأب الحقيقي مستبعَد عقلاً.

فكل هذه القرائن تُؤكد أن المراد من الأب هنا العم، ولا اعتراض على القرآن إذا اختلف مع الكتاب المقدس في ذكر هذا الاسم.

ثم يقول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۝ يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ۝ إِلا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.. أي يا رب احفظني من خزي ذلك اليوم الذي سيُبعث فيه الناس ليحاسَبوا على ما فعلوا، ولن ينفع فيه المرء ماله ولا أبناؤه، إنما يفوز من أتى الله بقلب طاهر بريء من العيب عامر بالاطمئنان. ومن الظاهر أن اطمئنان القلب إنما يتيسر للإنسان إذا كان على يقين بأنه قد حقق الغاية من خلقه ولا يكون عنده خوف على مصيره، وهذا اليقين لا يتأتى إلا بوصال الله سبحانه وتعالى. فالحق أن القلب السليم لا يتيسر إلا لإنسان يُنشئ صلته مع الله سبحانه وتعالى، لأن الثراء والمال لا يجلب لأحد الطمأنينة أبدًا. ألا ترى أن الشعوب الأوروبية لا تقدر أية أُمة أن تباريها في المال والثراء، ولكنها رغم امتلاكها القوة والكثرة والمال تشعر في قرارة نفسها أنها تفتقر إلى شيء يوجد عند الآسيويين. وهذا الإحساس بالدونية عندهم ليس بارزًا بعد حتى يشعر به صغارهم وكبارهم كلهم، إلا أن طبقة بينهم أخذت تدرك أنهم يملكون المال والثراء ولكنهم محرومون من طمأنينة القلب. إنهم يشربون الخمر ويرتادون السينما ويقضون معظم الليل والنهار في الرقص والغناء، وعندما يزول سكرهم ويستلقون على السرير يشعرون بفراغ في داخلهم، وهذا الفراغ لا يمكن أن يملأه إلا الدين والوصال بالله سبحانه وتعالى. لقد تيسرت لهم كل نعمة مادية، ومع ذلك يشعرون بقلق بأنهم لا يزالون يفتقرون إلى شيء ويجب أن ينالوه. والحق أن حب الله ووصاله نعمة لو تيسرت لإنسان تخلص من هموم الدنيا كلها، ولم تبقَ في قلبه حسرة. لا شك أنه يواجه همومًا عابرة، فمثلاً إذا أصيب المرء بشوكة تألم، ولكنه ألم عابر ولا يسميه أحد مرضًا. كذلك تواجه الناس آلام ومشاكل عابرة ولكنها لا تعيق طريقهم، وكل واحد يحظى بالسكينة والاطمئنان بحسب درجة إيمانه. ونظرًا لأهمية طمأنينة القلب قال الرسول صلى الله عليه وسلم: ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب. (البخاري: كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه)

يقول البعض في هذا العصر، وخاصة العلماء والأطباء المتخصصون بالتشريح، إن العضو الذي يقوم بضبط أعمال الإنسان وأفعاله وإراداته ورغباته وينظّمها هو الدماغ لا القلب، وقد بدأ بعض المسلمين يفسرون آيات القرآن الكريم بما يوهم أن المراد من القلب في القرآن ليس بالقلب المعروف، وإنما معناه ذلك المقام أو العضو الذي يتحكم في جسده. ولكني أرى أنهم إنما لجأوا إلى هذا التأويل خوفًا من هؤلاء العلماء، وإلا فإن التدبر في القرآن الكريم يكشف أنه يعني بلفظ القلب نفس العضو الذي يوجد في صدر الإنسان، والحق أن تأويل القلب بمعنى الدماغ مكابرةٌ دونما دليل.

على أية حال، إن هذا الحديث النبوي يبين أن تطهير الأعمال الإنسانية منوط بتطهير القلب، إذ لا تستطيع أن تتطهر بغسل يديك وتنظيف فمك ورأسك، ذلك لأن منبع الطهارة هو القلب، فإذا طهرت قلبك أتيت الله بقلب مطمئن. إن تطهير القلب هو أهم شيء عند خالقنا ومالكنا الذي خلق الخلق ليتطهروا، لأن غراس التقوى إنما تنمو وتزدهر في أرض طاهرة مطهرة، ولا يمكن لقلب نجس أن يكون مهبط تجليات صفاته ﷻ، ولا يمكن ليد نجسة أن تمس أعتاب عرشه ﷻ.

وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩١﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩٢﴾ وَقِيلَ لَهُمْ
أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ
﴿٩٤﴾ فَكُبْكِبُواْ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٥﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٦﴾
قَالُواْ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٧﴾ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ
﴿٩٨﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلْمُجْرِمُونَ
﴿١٠٠﴾ فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ﴿١٠١﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠٢﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا

كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٥﴾

شرح الكلمات:

أُزلفتْ: أَزْلَفه: قرّبه. (الأقرب)

بُرِّزتْ: برَّزه: أظهَرَه وبيّنه. (الأقرب)

الجحيم: النارُ الشديدةُ التأجّجِ؛ كلُّ نار عظيمة في مَهْواةٍ فهي جحيم؛ المكانُ الشديدُ الحرِّ؛ اسمٌ من أسماء جهنم. (الأقرب)

كُبْكِبوا: كَبْكَبَهُ: قلَبه وصرَعه. كبكبَ الشيءَ: رماه في الهوّة (الأقرب).

الغاوون: جمعُ الغاوي، وغوَى الرجلُ ضلَّ وخاب؛ وانهمكَ في الجهل؛ هلَك. (الأقرب)

جنود: جمعُ جند، والجند: العسكرُ؛ الأعوانُ. (الأقرب)

نسوِّيكم: سوّاه بكذا: عدَّل. (الأقرب)

حميم: الحميم: القريبُ الذي تهتمّ بأمره؛ الصديقُ (الأقرب).

كَرَّة: كَرَّهُ كَرًّا فكَرَّ: رجَعه فرجَع. والكَرّة: المَرّة (الأقرب).

التفسير: والمراد من تقريب الجنة إلى المتقين أن الإنسان التقيّ كلما عمل حسنة واحدة سهل عليه القيام بالمزيد من الحسنات، وبالتالي اقتربت الجنة منه.

لقد رأيت على العموم أن المرء إذا وجد لذة في العمل الصالح تقدم في الصالحات بدلاً من أن يتأخر، ويعمل الحسنات الواحدة تلو الأخرى، ويسهل عليه فعل الحسنات. ذهبتُ مرة إلى دلهي، وذلك قبل انقسام الهند وحين لم يكن الشودري ظفر الله خان يتقلد منصب الوزير في الحكومة الهندية، بل كان يعمل محاميًا لها في إحدى القضايا. وكانت الحكومة عندها قد استحضرت خبيرًا اقتصاديًا من إنجلترا لاستشارته في بعض الأمور. فدعاه الشودري ظفر الله خان إلى مأدبة طعام ليقابلني فيها. فقدم له الشودري ظفر الله خان أثناء تناول الطعام نوعًا من الحلوى نسميه

عندنا "گُلابْجامَنْ" أو "رَسْگُلّا"، وكانت شيئًا غريبًا لهذا الشخص الإنجليزي. فخاف من تناولها، فقال الشودري: لا تخف، وجرب؛ إنها حلوى جيدة. فتناول قطعة منها. فأراد الشودري أن يناوله قطعة أخرى، ولكنه تردد، فقال له: لقد أكلت القطعة الأولى عجبًا، فكُل الثانية استمتاعًا. فقلت للشودري ظفر الله خان: ما هذا الذي قلت له آنفًا؟ قال: هناك تعبير إنجليزي يقول: يُؤكل الشيء للمرة الأولى عجبًا، ويُؤكل للمرة الثانية استمتاعًا.

هذا مثل لأهل الدنيا، ولكني قد رأيته ينطبق في العالم الروحاني تمامًا، حيث تعمل الخير في البداية لتجرّبه وتتذوقه، أما بعد ذلك فتعتاده تلقائيًا. فإن الناس يخافون شرب السوائل المطهرة المصنوعة من الكحول الطبي، ولكن أهل أوروبا يستمتعون بشربها ولا يمتنعون من تعاطيها رغم الحظر. فعندما فُرض الحظر قانونيًا على تعاطي الخمر في أمريكا مات آلاف الناس لأنهم شربوا الكحول الطبي إشباعًا لإدمانهم على تعاطي الخمر التي لم يجدوها. واستمر الوضع هكذا لسنين، حيث كانوا لا يجدون الخمور فكانوا يشربون الكحول الطبي الذي فيه سموم، فكثير منهم فقدوا البصر، وكثير منهم ماتوا، ومع ذلك لم يقدروا على كبت رغبتهم في شرب الخمر.

إذًا، فلكل شيء لذتان، لذة أصلية ولذة تتولد نتيجة الاعتياد. ففي بلادنا مثلاً يمضغ الناس "بان"، وبعضهم يضيفون إليه مادة مصنوعة من التبغ تسمى عندنا "زرده"، ومن لم يكن معتادًا على تناول هذا النوع من "بان" يصاب بالدوار بتناوله. أتذكر أنني أُصبتُ ذات مرة بنوبة شديدة من مرض النقرس، فقال لي أحد الإخوة: عليك بتناول هذا النوع من "بان" فسوف تشفى بإذن الله تعالى. فقلت له: إني لم أتناوله قط وأخاف أن يصيبني الدوار. قال: كلا، عليك أن تجرب. فأعطاني "بان"، فلما تناولته شعرت تحسنًا ملموسًا بالفعل. ثم لم يزل يعطني إياه كل بضع ساعات ليومين كاملين قضيناهما في السفر معًا، فرأيت أن الألم قد زال إلى حد كبير. فامتنعت عن تناوله مخافة أن أصاب بإدمانه.

إذًا، إن الأشياء المؤذية والرديئة الطعم أيضًا إذا تناولها المرء كعلاج لفترة طويلة اعتادها واستطابها. فإذا كان المرء يعتاد ما فيه قليل من النفع فكيف لا يعتاد على ما فيه كثير من النفع كالتضحية في سبيل الدين؟ كل ما في الأمر أن يُشجَّع على تقديم التضحية، وسوف يجد بعد ذلك متعة في خدمة الدين من تلقاء نفسه بحيث يستحيل عليه الصبر بدونها طرفة عين. إن المرء إذا لم يجد ما يأكله يصرخ ويبتهل أمام الله ﷻ ليهيئ له الطعام، كذلك حال من يوفق لخدمة الدين وإشاعته، فإذا تمكن من خدمة الدين شكر الله ﷻ وحمده، وإذا لم يوفق لها بعض الوقت ابتهل إلى الله ﷻ بأن يزيل ضعفه، ويعينه على خدمة الدين أكثر فأكثر؛ وهكذا يسهل عليه القيام بالصالحات شيئا فشيئًا، وتقترب منه الجنة رويًدا رويدًا.

وهذه التضحيات الدينية التي تكون سهلة على المؤمنين تبدو للذين يكونون منحرفين عن الحق كأَلْسنة النار، فيحاولون الفرار والتملص منها. وهذا يعني أن المؤمنين يقفزون في نيران التضحيات ابتغاء مرضاة الله ﷻ فتصبح لهم جنة، بينما تجعل هذه النيران المنافقين والضالين حطب جهنم، حيث تهتك الستر الذي يُخفي كفرهم ونفاقهم.

كما أخبر الله ﷻ في قوله: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أيضًا أنها ستُقرَّب منهم في الزمن الأخير، بمعنى أن الله ﷻ سيهيئ الأسباب العاملة على تقريب أحكام الدين من عقول الناس فيفهمونها، وستخبو تلقائيًا جذوةُ المعارضة التي يواجهها الدين من قبل العلم، وبالتالي يسهل على المتقين دخول الجنة. وبالفعل نرى أن هذه النبوءة القرآنية قد تحققت في هذا العصر، حيث أخذت فئة من شرفاء أوروبا يتنازلون شيئًا فشيئًا عما ادعوه من قبل، بينما أخذت فئة أخرى منهم يرجعون إلى الدين معترفين أن الأمور التي كانوا يرونها خلاف الطبيعة هي ليست كما ظنوا من قبل. فكأن الوضع أصبح مصداقًا لقول الله ﷻ: ﴿دَنَا فَتَدَلَّى﴾ بمعنى أن العلماء أخذوا في الصعود في معرفة الحقيقة، بينما أخذت المبالغات التي أدخلها العلماء في الدين في الزوال شيئًا فشيئًا، وهكذا تتهيأ الدنيا لتصديق أحكام الله ﷻ وتُقرّب إليها الجنة رويدًا رويدًا.

ثم يخبر الله تعالى أن الذين سيُعرضون عن هداية الله ﷻ في مثل هذا العصر، فلا بد لهم من المثول أمام الله ﷻ للحساب، فيقال لهم: ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ۞ مِنْ دُونِ اللهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ﴾، وعندما يرى هؤلاء مصيرهم بأعينهم حيث يُلقى بهم وآلهتهم وجنودهم الأبالسة في الجحيم، ويُنـــزع منهم كل عزة، فإنهم سيختصمون فيما بينهم. فالذين اتبعوا زعماءهم في الدنيا اتباعًا أعمى، و لم يلبّوا نداء الله ﷻ سيقولون لزعمائهم: تالله لقد كنا في خطأ كبير، إذ جعلناكم أندادًا لرب العالمين واتبعناكم بدلاً من أن نلبي نداء المنادي الذي جاء من عند الله ﷻ. ثم يقولون ليهوّنوا الأمر على أنفسهم: ما ذنبنا في ذلك ﴿وَمَا أَضَلَّنَا إِلا الْمُجْرِمُونَ﴾، فلو لم يصدّوا طريقنا لم نلقَ هذا المصير. لقد كانوا يقولون في الدنيا سنحمل عنكم أوزاركم ونوصلكم إلى الجنة، أما اليوم ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ۞ وَلا صَدِيقٍ حَمِيمٍ﴾.

كان الخليفة الأول ﷺ يحكي لنا أن إحدى أخواته كانت من أتباع أحد المتصوفين الزائفين، فجاءت تزوره في قاديان مرة، فقال لها: يا أختاه لماذا لا تنضمين إلى الأحمدية؟ قالت: لا حاجة بي لذلك فإنني قد بايعت على يد رجل قد قال لي: افعلي ما شئت، وليس بك حاجة إلى القيام بأي عمل حسن، لأننا قد حملنا عنك خطاياك كلها. فقلت لأختي: عندما تزورينه في المرة القادمة قولي له: لا شك أن كل إنسان سيُضرب بالنعال جراء ذنوبه يوم القيامة، فهل فكّرتَ في عدد الضربات التي ستتلقاها حيث إنك قد حملتَ ذنوب جميع مريديك؟ فوعدتْني أختي بأن توجه هذا السؤال إلى هذا الرجل. وبعد مدة من الزمن جاءته أخته ثانية فسألها: هل سألت الرجل ما قلتُ لك؟ قالت: نعم، ولكنه قد حل المعضلة بمنتهى البساطة. قلت: كيف؟ قالت: قال لي: انظري، عندما يسألك الملائكة عن ذنوبك فقولي: لا أعرف أي شيء، بل اسألوا سيدي الشيخ هذا. فيخلي الملائكة سبيلك، فتدخلين الجنة بسلام. فقلت للرجل: ولكن ماذا ستفعل أنت يا سيدي؟ قال: عندما يسألني الملائكة سأستشيط غضبًا وأقول لهم: ألم يكفِكم ما قدّمه جدي

الإمام الحسين في كربلاء من تضحية عظيمة حتى جئتم اليوم لمضايقتي سائلين: ماذا فعلتَ ولماذا فعلت؟ فسيتندم الملائكة ويخلون سبيلي، فأركُض إلى الجنة.

ونرى هذا المشهد كل يوم في الدنيا حيث نجد الناس لا يتورعون عن الكذب من أجل أصدقائهم، ويلجأون من أجلهم إلى أنواع الغشّ والخداع والتزوير، ضاربين أحكام الله ورسوله عرض الحائط. أما يوم القيامة فلن ينفع أحدًا صديق ولن ينقذه مَن يعِده بحمل ذنوبه من عذاب الجحيم، فيقول بكل حسرة وأسف: لو كانت لي قوة للعودة إلى الدنيا لتداركت ما فات، ولكن هيهات أن يتحقق له ما تمنى، لأن وقت العمل قد فات. يقول الله تعالى: إن في واقعة إبراهيم آية عظيمة، حيث رفَع الصوت ضد الأصنام رغم ضعفه وقلة حيلته، فعارضه قومه حتى اضطروه إلى الهجرة، ولكن الفوز كان حليفه في آخر المطاف، ولم تنفع قومه أصنامهم شيئًا، ومع ذلك ظل معظم قومه منغمسين في الملذات المادية ولم يُوفقوا للإيمان. ولكن الله تعالى يقول: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.. أي لا شك أن الأكثرية من قوم إبراهيم لم تؤمن به، ولكن ربك ذو غلبة ورحمة، وسيوفق أكثر قومك للإيمان في النهاية، وسيمتّعهم بنعمه زمنًا طويلاً. وهذا ما حصل فعلاً بعد فتح مكة، حيث آمن بالنبي ﷺ قومه، ثم متعهم الله بنعمه لمئات السنين ببركة إيمانهم، ووهب لهم الحكم دهرًا طويلاً.

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٨﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١١٠﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١١﴾

التفسير: أي أن قوم نوح أيضًا كذبوه حين بُعث إليهم ممثلاً للرسل جميعًا. لقد قام بوعظهم فلم يتعظوا، فقال لهم: لم لا تفهموا قصدي من نصحكم، ألا ترون أنني لا أسألكم أي أجر على نصحي، بل إن كل رجائي وثقتي بالله رب العالمين؟ فعليكم أن تتقوه وتطيعوني.

وقوله عليه السلام: ﴿وأطيعون﴾ يبين أن طاعة النبي والعمل بشريعة الله تعالى قضيتان منفصلتان ولا بد منهما. يزعم "القرآنيون"* أننا مأمورون من عند الله تعالى بطاعة القرآن فقط لا بطاعة محمد ﷺ. ولكن نوحًا عليه السلام – وهو أدنى درجة من الرسول ﷺ – أيضًا يقول لقومه إنه لا بد لهم من طاعته وعندها ستكتمل تقواهم. ذلك أن أول درجة في سُلّم العلاقة بالله تعالى هو إنشاء الصلة بأنبيائه تعالى. فكما أن من المحال أن يصعد الإنسان السطح بقفزة واحدة، كذلك يستحيل عليه إنشاء الصلة بالله تعالى بدون طاعة أولئك القوم الذين يُبعثون لهداية الناس من عنده تعالى.

بيد أنه كما يحدث أحيانًا أن المرء يكون جالسًا على السطح فيرى أن أسدًا قد هاجم شخصًا، فيدلي له الحبل ويسحبه إلى السطح، كذلك يحدث أحيانًا أن الله تعالى يرى عبدًا من عباده يتلهف للقائه بصدق، ولكنه يعيش في بيئة لا تتيسر له فيها هداية نبي، فيجذبه إليه بنفسه. ولكن هذا أمر شاذ، والقوانين لا تُسنّ نظرًا إلى الحالات الشاذة، بل القانون العام أن الناس يحرزون الرقي الروحاني بواسطة أفراد يتراءى فيهم وجه الله تعالى. وهناك طريق واحد لإحراز ذلك الرقي وهو: أن يؤثر المرء حبَّ هؤلاء القوم على حب كل إنسان سواهم، وعندها يسهل عليه طاعتهم والتأسي بأسوتهم، فيوقن أنه لا يطيع أحدًا من الأغيار، بل يعتبر مُطاعه أبًا له يجري دمه في عروقه. وقد نبه نوح عليه السلام أيضًا قومه إلى الأمر نفسه بأنهم إذا أرادوا النجاة فعليهم بتقوى الله تعالى، كما لا بد لهم من طاعته عليه السلام لأنه مبعوث من عند الله تعالى لهدايتهم.

---

* "القرآنيون" أو "أهل القرآن" هم فرقة لا تعترف بالسنة النبوية ولا تأخذ بأحاديث الرسول ﷺ. (المترجم)